

MUHAMMAD IBN HALLADON

D 116.7

I 3

H 82

1952

C-1

تأليف

أحمد محمد الحويني

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول



ملتمس الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر

شارع كامل باشا صدق «القجالة»

مطبعة نهضة مصر

مكتبة
لسان العرب



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

٩٠٢
ج. ٤٩

39192

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقْدِمةٌ

سعدت بصحبة ابن خلدون فترة خصية من الزمن ، ألتقي نظراته ، وألتقي منه آراءه ، وأعجب بعده مداه في بسط النظرة ، وبطريقة عرضه للفكرة ، ومنهجه في التحليل والتعليق . ثم أزهى بهذا المفكر العبقري العربي الذي سبق المفكرين جيئا ، ففلسف التاريخ ، وأصل علم الاجتماع ، فكان علماً مرموقاً في سماء التفكير العالمي المبدع .

لذلك عكف بعض الفريبيين على دراسته ، وشادوا بعيقريته ، وأفروا له بالسبق ، وأولاه بعض الشرقيين عنابة محمودة ، ولكنها محدودة ، لأنها فيما أعلم كتابان اثنان ، أحدهما للدكتور طه حسين باشا سنة ١٩١٧ ، والآخر للأستاذ محمد عبد الله عنان سنة ١٩٣٣ . وكان ابن خلدون في الفترة التي يذهما ، وفي الزمن الذي بعدهما قد فض حلقة الدرس ، وانزوى عن الطلاب والعلماء ، لا يحاضر ولا يجادل ولا يُملى ولا يُوحى . وكأنه لا يستحق منا نحن الشرقيين أن نتخلق حوله لنستمع إليه ، ونتلق عنه ، فنذيع آرائه ، ونناقش نظراته .

وقد رأيت أن أقوم بنصيبي في هذا المجال ، وفأم للرجل العظيم الذي صاحبته حيناً ، ورأيت أن أقصر دراستي على جوانب لم يعرض لها

الدارسون ، أو هُنْ لحظوها بالنظر الخاطف العجلان . وعمدت إلى
الموازنة بين آرائه وآراء سابقيه من مفكري الإسلام ؛ لأنَّه مبلغ ما في
آرائه من أصالة أو حاكمة ، ووازنَت بين آرائه وآراء المفكرين من علماء
الغرب المحدثين ، لأَرُوَّزَ قيمتها ، وأَسْبَرَ حقيقتها ، وأَكَشَّفَ عنها في ضوء
العلم الحديث .

ثم درست أدبه نثره وشعره ، وبيَّنت خصائصه ، ومكانته وأثره
فيمن بعده .

وما توفيق إلا بالله ، وهو الهدى إلى سواء السبيل ۹

أَحمد محمد الحوفي

أبريل سنة ١٩٥٢

عَصْرُ الْعِلْمِ

عاش ابن خلدون في القرن الثامن الهجري ، عصر المأمون في مصر .
وكانت بغداد قد سقطت في أيدي التتار ٦٥٦ هـ ، وكان سقوطها كارثة
مُنيت بها اللغة والأدب والحضارة العربية ، ثم أخذت الدولة العربية تنهار في
الأندلس ، فتسقط المدن في أيدي القوط واحدة بعد أخرى ، فلم يجد علماء
بغداد وأدباؤها ملجأً يثرون إليه غير مصر ، فراراً من عسف التتار بدار
السلام وحاضرة الإسلام ، ورغبة عن الإقامة بها بعد ما خرب التتار
معالمها ، وأفرغوا في نهر دجلة كتبها . وفر علماء الأندلس إلى مصر جزعاً
ما يصبه الفرجنة على المسلمين من ويلات التنكيل والتعصب المقيت .

وحبّ مصر إليهم ما يسمونه عن خيراتها وكرم أهلها ، وأنها صارت
عاصمة الخلافة الإسلامية ، فعجبت بهم مصر والقاهرة ، وكانوا أخلاطاً شتى ،
فيهم الفارسي والعربي والهزارى والشامى والإفريقى والأندلسى . وقد حقق
المأمون ظنهم ، فأكرموا وفادتهم ، ورحبوا بهم ، وأغدقوا عليهم الهبات
والمنح ، فاطمأنت نفوسهم بعد قلق ، وأمنت بعد هلع ، فشرعوا يأتلفون
الإنتاج العلمي والأدبي ، مدفوعين بالرغبة النفسية في التأليف ، ومدفوعين
بتنافس على منتج ، ثم هم يريدون أيضاً أن يعيدوا إلى المجد الإسلامي
روايه الذي طمس التتار معالمه ، ويريدون أن يُعواضوا المكتبة العربية
ما فقدته في نكبة بغداد والأندلس .

وقد كثر إنتاجهم في هذا العصر ، حتى شرقت به خزان الكتب ، كما

كثُرت المدارس في هذا العصر كثرة لا مثيل لها من قبل ، حتى إن المدرسة الفاضلية كان بها نحو مائة ألف مجلد .

وكان القاضي الفاضل يقتني الكتب من كل فن ، ويجلبها من كل جهة ، وله نسخ ومجلدون لا يفترون ، وقد بلغ عدد كتبه قبل أن يتوفى بعشرين عاماً اثنتي عشر ألفاً وأربعمائة كتاب ^(١) .

وقد أنشأ المدرسة الحمودية الأمير جمال الدين محمود الاستادار سنة ٧٩٧هـ وأنشأ بها خزانة كتب لا نظير لها بمصر والشام ، وهي باقية إلى اليوم – عصر المقربي – ، ولا يُؤلف عالم كتاباً إلا اقتبسه ، وبها كتب من كل فن ^(٢) .

وكان إنتاج العلماء على غزارته من نوع الألوان والطراائف ، يتناول كل فن وكل علم .

وكان بعضه جماعاً وتصنيفاً ، وبعضه اختصاراً مطويّ أو تعليقاً على مختصر ، وكان بعضه ابتكاراً وتجديداً كمقدمة ابن خلدون ثم كان بعض المؤلفين لا يقتصرن على الجمع والتصنيف ، وإنما يحققون ويحصون كالمقربي ، وابن خلكان ، وابن مالك ، والشاطبي ، وابن هشام ، وابن منظور .

ويمتاز هذا العصر بوفرة كتبه الكثيرة الجامعة لأشتات من العلوم والثقافة والأدب ؛ مثل (مسالك الأبصرار في مالك الأمصار) لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤٨هـ) و(صبح الأعشى في صناعة الإندا) لشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى ٨٢١هـ)

و(نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد التورى (المتوفى ٥٧٢٢) ولمعت في هذا العصر أسماء كثير من العلماء والمؤلفين غير هؤلاء مثل ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨) وابن هشام (٧٠٨ - ٧٦١) والقسطلاني (٩٢٣ - ٨٥١) وابن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢) والسيوطى (٨٤٩ - ٩١١) وابن منظور (٦٣٠ - ٧١١) والفيروز ابادى (٧٢٩ - ٨١٧). وكان للتاريخ نصيب عظيم من عنابة العلماء، لأنهم أرادوا تسجيل ماضى العرب والإسلام، وتوخوا أن يغنووا المكتبة العربية بعد أن أفقرها التار، ثم لأن الفرنجية تغلبوا على بعض بلاد الأندلس وطُوّحوا بما وجدوا من مؤلفات.

على أن المؤلفين في التاريخ أشبهوا المؤرخين السابقين في جمعهم بين التاريخ والأدب، وأشبهوهم أيضاً في أنهم لم يجيدوا النقد لما يروى، ولم يعلقوا على الحوادث برأيهم الذى بنم على شخصيتهم العلمية ، ولم يحللوها ببيان دوافعها الحقيقية ونتائجها . ثم هم في دراستهم لسير السلاطين والأمراء والوزراء لم يعرضوا للنشاًتم وبيتهم وأثرها في نفوسيهم وموتهم . وهم في دراستهم للأمم عنوا بالأحداث السياسية والحرية ، ولم يحفلوا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، وبذلك أرخوا للملوك لا للشعوب .

أما ابن خلدون فقد نظر إلى التاريخ نظرة أخرى ، فوضع أصولاً تكفل للمؤرخ أن يتهدى إلى الصواب، وأن تكون له شخصيته فيما يكتب، وبذل سابقيه جميعاً بعذاته بدراسة أحوال المجتمع ، و تتبع الأحداث ، واستخلاص النتائج ، ثم إنه سلك في التاريخ مسلك الحوادث لامسلك السنين كما فعل الطبرى وابن مسكون به من قبله .

وكانت بلاد المغرب عاكفة على الحديث والفقه ، ولا سيما مذهب مالك وأئمـة حنفـة ، وكانت العلوم الفلسفـية هناك خافتـة الصـورـت ، لأنـ الفـلـاسـفـة يضطـهـدون ، وتحـرـقـ كـتـبـهـم . يقول المـقـرـى التـلـمـسـانـى (أـمـا مـلـكـةـ الـعـلـومـ النـظـرـيـةـ فـهـىـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـبـلـادـ الشـرـقـيـةـ . وـلـاـ عـنـاـيـةـ لـحـدـاقـ الـقـرـوـيـنـ وـالـإـفـرـيـقـيـنـ إـلـاـ بـتـحـقـيقـ الـفـقـهـ فـقـطـ ، وـلـمـ يـزـلـ الـحـالـ كـذـكـ إـلـىـ أـنـ رـحـلـ الـفـقـيـهـ اـبـنـ زـيـتونـ^(١) إـلـىـ الـمـشـرـقـ ، فـلـقـيـ تـلـامـيـذـ الـفـخـرـ بـنـ الـخطـيبـ ، وـلـازـمـهـ زـمـانـاـ حـتـىـ تـمـكـنـ مـنـ مـلـكـةـ الـتـعـلـيمـ ، وـقـدـمـ إـلـىـ تـوـنـسـ فـاتـفـعـ بـهـ أـهـلـهـ^(٢) .

ولـكـنـ عـبـرـيـةـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ حـطـمـتـ قـيـودـ الـبـيـشـةـ ، وـحدـودـ الـعـلـومـ المـرـسـوـمـةـ ، فـبـغـ فيـ عـصـرـ نـدـرـ فـيـهـ مـنـ يـجـدـ ، وـسـبـقـ أـهـلـ زـمـانـهـ سـبـقاـ لـاـ يـذـرـكـ ، بـلـ سـبـقـ مـنـ بـعـدـهـ سـبـقاـ يـجـهـدـ مـنـ يـترـسـمـ خـطـاهـ ، أـوـ يـحـاـوـلـ أـنـ يـلـغـ مـدـاهـ .

(١) اـبـنـ زـيـتونـ : أـبـوـ القـاسـمـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ المـتـوـفـ ٧٣٠ هـ

(٢) أـزـهـارـ الـرـيـاضـ فـيـ أـخـبـارـ الـقـاضـيـ عـيـاضـ ٢٦ / ٣

حَيَاةُ

أسرته :

كثير من العظام ولا سيما في البلاد الأوروبية يسطرون بأنفسهم قصة حياتهم ، وقلة من الشرقيين دونوا سيرة حياتهم موجزة ، فياقوت ترجم لنفسه في كتابه معجم الأدباء ، ولسان الدين بن الخطيب ترجم لنفسه في كتابه الإحاطة بأخبار غرناطة ، وابن حجر عرّف بنفسه في كتابه رفع الإضرار عن قضاة مصر .

وقد شرع بعض المعاصرين يدونون حياتهم مفصلاً تفصيلاً ، كالدكتور طه حسين باشا في كتابه الأيام ، والأستاذ أحمد أمين بك في كتابه حياتي .

وقد فعل ذلك ابن خلدون في القرن الثامن ، إذ دون تاريخه إلى ٨٠٧^(١) ، فلم ينقص من حياته إلا العام الأخير .

أما اسمه وكنيته فأبو زيد عبد الرحمن بن محمد ... بن خلدون ، وخلدون
هذا جده التاسع - وأصله خالد - وقد نسبت الأسرة إليه لأنه أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة مع الغزاة الفاتحين . وأصله من عرب اليمن ، ينتهي نسبة إلى وائل بن حجز ، ثم رحلوا إلى المغرب ، واشتركوا مع طارق وموسى بن نصير في فتحها ، واستوطنوها . ولكنهم لم يশهروا إلا في أوائل القرن الهجري الثالث أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٢٧٤-٥٣٠)

(١) كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً مخطوط. بدار الكتب

إذ غامروا مع الثائرين ، وتنزعم بعضهم الثورة ، واستطاع كُرَيْب بن خلدون أن يستقل بِإِشْيَلِية ، لكنه قُتل ، وبقي بنو خلدون بغير زعامة إلى أن عاد لهم مجدهم في دولة بني عَبَاد ، حيث رقوا إلى مناصب الوزارة والرياسة .

وقد انضموا في سنة ٥٦٢ هـ إلى بني حفص ، ونزلوا معهم في بلاد البربر يدعون ضد الموحدين ، وحفظ لهم الحفصيون هذا الوفاء ، فولوا الجد الثاني لابن خلدون شئون الدولة الحفصية بتونس . ثم تولى جده الأول الحجابة لحاكم بجایة من بني حفص ، وحارب معهم الخارجين عليهم ، وبقي مقرباً لديهم إلى ٥٧١ هـ حيث سقطت تونس في قبضة زعيم الموحدين . فقر به إليه وانخرجه حاجبه ، وبقي في منصبه إلى أن توفي سنة ٥٧٣٧ هـ .

وأما أبوه فإنه باعد بين نفسه والسياسة ، لأنه رآها حافلة بالأحداث والفتن ، وآخر أن يعكف على القراءة والدرس ، وكان ميله الخاص إلى علم الفقه واللغة وقرض الشعر . وقد توفي ٥٧٤٩ هـ .

سبعين :

كانت أسرته مشهورة بالسياسة وبالعلم والأدب ، فتولى أبايه أولها ثُم على علماء المغرب ، وأحاط بشقاقة عصره ، وكان لها ولذاته أثر عظيم في فكره . وإذا علم أن أسرته كان لها شأن عظيم في خدمة الملوك وتصريف الأمور فقد اشتاق إلى أن يمارس ما مارسوه من قبل ، فعمل كتاباً للسلطان لابن إسحق الحفصي ، ثم للسلطان أبي عنان المريني سلطان المغرب الأقصى ، ثم أبي سالم المريني . ثم رحل إلى غرناطة في ظل السلطان محمد بن الأحرر ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، وحينئذ أرسله ابن الأحرر إلى ملك قشتالة الإسباني

باشيلية فنبح في سفارته وعاد موفقاً . ثم رجع إلى بجاية حيث تولى منصب الحجابة . ثم تحول عن السياسة واستغل بالتدريس بمدينة بسكرة ، ثم خرج إلى فاس ، ثم عاد إلى الأندلس بعد مقتل ابن الخطيب ، ثم طرده محمد بن الأحمر ، فاختار تلمسان وعاش في ظل أميرها أبي حمو ، ثم نزل في رعاية أولاد عريف في قصر لهم بقلعة سلامة ، وعاود العزم على أن ينقطع عن السياسة ، فشك هنالك أربع سنوات ألف فيهن مقدمته ، وكتب تاريخ العرب والبربر وزناته ، ولتكنه شعر بحاجته إلى بعض المراجع ، فاستأذن آل حفص في العودة إلى تونس ، فأجابوه ، وهناك أكب على المراجعة ، وأتم تاريخه .

ولما استغل بالتدريس والتأليف ، واستفاضت شهرته في الآفاق حنق عليه علماء تونس الذين سلبهم شهرتهم ، واجتذب منهم طلابهم ، فوشوا به إلى السلطان . فلما علم بوشائهم تذرع للخلاص ، فاستأذن في الرحلة إلى المشرق ليحج ويتم تاريخه ، وكان في نفسه يزمع مصر .

وصل إلى مصر ٧٨٤هـ في عهد الملك الظاهر برقوق ، ودرس في المدرسة القمحيّة بجوار جامع عمرو ، ثم في المدرسة الظاهريّة البرقوقيّة ، ودرس أيضاً في الأزهر . لكنه لم يذكر العلوم التي درسها . ولم يذكر الكتب التي علّمها وقرّرها .

وفي مصر تولى قضاء المالكيّة ست مرات ، وكان يعزل لأنّه يلح في الإصلاح ، ولأن حсадه نهازون للفرص .

ونُكِّب بغرق أهله وأولاده في البحر وهم مقبلون إلى مصر ، فحزن

لذلك ، ونَفَسَ عن نفسه بالحج ٨٧٩ هـ ثم سافر إلى فلسطين ليشاهد أثارها
سنة ٨٠١ هـ .

ولما دهم تيمور لنك الشام ٨٠٣ هـ خرج للقائه السلطان الناصر فرج ،
وأصطحب معه جلة العلماء ، وفيهم ابن خلدون ، ونزل العلماء في المدرسة
العادية ، ولقي ابن خلدون تيمور لنك وحادثه .

وكان ذلك في سنة ٨٠٣ ، وهو يقص في كتابه التعريف أنه تحدث مع
تيمور لنك طويلاً ، وأنه سأله عن بلاد المغرب وأحواله وسلطانيه ،
وطلب منه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب ، وأن ابن خلدون شرح
له بعض آرائه التي يراها في الملك والعصبية ^(١) .

ثم عاد إلى مصر ، وعاود التدريس والقضاء ، حتى توفي ٨٠٨ هـ .

(١) التعريف بابن خلدون .

شَفَافَتْهُ

كان أبوه معلمه الأول ، قرأ عليه القرآن وحفظه ، وتفقه في القراءات
السبع .

وكانت تونس إذ ذاك مزداناً بعلماء المغرب وأدبائه ، وكانت منزلة
الوافدين عليها من علماء الأندلس الذين شتتهم أحاديثها أو لم يجدوا طمانينة
وخيراً في الإقامة بها ، فتلمذ بعد أبيه على هؤلاء وهؤلاء ، فدرس عليهم
العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول على مذهب الإمام مالك ،
والعلوم العربية من لغة ونحو وأدب ، والعلوم الفلسفية ولا سيما المنطق ،
وقد برع فيه براعة عظيمة ، وهو يحدثنا بهذه البراعة وبثناء أساتذته عليه ،
وتشجيعهم له بالجوائز ، ويحدثنا أيضاً أنه حفظ المعلقات وديوان الحماسة ،
وغيرها من شعر القدامى والمحدثين ، ويحدثنا عن دراسته للموطأ وصحيف
مسلم ، وقراءته لفلسفة ابن رشد والتصوف الإسلامي ، ودراسته الجغرافية
في كتاب بطليموس والشريف الإدريسي . ويحدثنا أيضاً عن أساتذته
وبنو غهم في العلوم التي درسها عليهم ^(١) . وقد يجوز لنا أن نرتّب قليلاً في
بعض ما ذكر ، لأنّه كتب هذا التعريف بنفسه وهو في مصر حيث المنافسة
والأحقاد ، والتربيز في العلوم ، والأنداد المتألّبون عليه ، فمن المتوقع أن
يبالغ في تفصيل تعلمه وعلومه ، وأن يبالغ في ذكر الكتب التي درسها ، وفي
أقدار أساتذته الذين تلقى عليهم ، ثلاثة يدوّ أمّا علماء مصر المنافسين له أقل
اطلاعاً ، وأقصر باعاً .

(١) التعريف والمقدمة ٥١٠

والحق إن الفلسفة التي كتبها للتاريخ ، وبصره بأحوال الاجتماع ، ونظراته الصائبة الدقيقة في علم الاجتماع ، كل أولئك يشهد له بالعبرية والاطلاع الواسع . ولا عجب ، فقد اطلع على مكاتب تونس ومراسك وغرنطة والقاهرة ودمشق وقلعة سلامة ، وأفاد من أسفاره وتنقله في هذه الأقطار خبرة واسعة ، ثم إنه قضى نحو ربع قرن في خدمة الملوك يغامر في ميادين السياسة ، ويجوس خلال البلدان يدرس ويستقصى ويلاحظ ويخزن ما يلاحظ وينتفع به . فنحن نعلم أنه نشأ بالمغرب وعرف أحواله ، ودرس قبائله ، وخبر بدوه وحضره . ونعلم أنه رحل إلى الأندلس ، وتعرف حال من بي بها من المسلمين ، ونعلم أنه جاء إلى مصر ودرس بها وتولى قضاء المالكية ، واطلع على كثير من شتونها وحضارتها وحالتها الاجتماعية ، وأنه سافر إلى الشام وعرف شتونها ، وأنه حج ولقي كثيراً من المسلمين فعرف أحوال الحجاز والحجيج . ونعرف أيضاً أنه اتصل بملوك عصره ، فعرف كثيراً من دخائل السياسة ، فقد اتصل بسلطان البربر ، وغرنطة ، وسلطان مصر ، واتصل أيضاً بتيمور لنك .

هذا إلى أن عصره كان يتعجب بالأحداث ، وقد شهد لها واستفاد منها ، فالعرب والبربر في صراع ، والبدو والحضر في نزاع ، والسلاطين يتحاربون ، والتاريهمون . ولا شك أن هذه الأحداث أوحت إليه بآرائه في البدو وفي الحضر ، وفي قوة الدول وضعفها ، ونشأتها وزواها .

على أن لا أغفل بنوعاً آخر من بناء ثقافته هو عبريته ، لأن ابن خلدون كان ذا عقل جبار مبدع ، لا يملي التزود من المعرفة ، وفي الوقت نفسه يجيد الانتفاع بما عرف . فقد تولى الكتابة بفواد ، واشتغل

كاما للسر فأبدع ، وندب للسفارة واستهلاة الخارجين فنجح ، وتولى الحجابة
فبرز ، وولي القضاء فأنصف ، وألف فتفوق وابتكر ، ودرس فشرقت
حلقات درسه بالطلاب المعجبين .

مؤلفاته :

قال لسان الدين بن الخطيب إن ابن خلدون عاج المنطق ، ولخص كثيراً
من كتب ابن رشد ، ولخص محصل الإمام الفخر الرازي في علم الكلام .
وألف كتاباً في الحساب ، وألف كتاباً في المنطق ، وشرع في هذه الأيام
بشرح الرجز الصادر عن في أصول الفقه بشيء لا غاية بعده في الكمال ،
وله شرح بديع للبردة ^(١) .

ولقد ذكر هذه المؤلفات قبل أن يطلع على آية بن خلدون : المقدمة
وال تاريخ . فهو يجهل ما نعلم ، ونعلم ما جهل ، لأننا لا نعرف من مؤلفاته
التي ذكرها شيئاً ، ونحسب أن ابن خلدون قد زوج في المقدمة بما ذكره لسان
الدين حين تكلم على العلوم ونشأتها وتطورها وراجعتها ، لأن ابن خلدون
لم يذكر منها شيئاً في تعريفه بنفسه .

مصادره :

استقى ابن خلدون من سابقيه في التاريخ وفي الاجتماع ، فأخذ بعض
آرائه من الفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، أخذ عنه حاجة الإنسان
إلى الاجتماع ، ونشأة المدن والقرى ^(٢)؛ وتأثر به في تقسيم العلوم كما سنرى ^(٣) .

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة في الجزء الأخير ترجمة لابن الخطيب بقلمه

ونفح الطيب ١١/٤ المقرى (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣

(٣) إحصاء العلوم للفارابي . تحقيق الدكتور عثمان أمين

واستقى من إخوان الصفا في تقسيمهم العلوم وآرائهم في تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق ، وتقسيمهم الصناعات وعناصرها المحتاجة إليها ، على أنه خالفهم لأنهم فلا سفة بظريون وهو فيلسوف عملي . كما اعتمد في تقسيم العلوم على مفاتيح العلوم للخوارزمي ، ونقل كثيراً من الآراء السياسية عن كتاب (الأحكام السلطانية) لابن الحسن الماوردي ، وكتاب الوزارة وسياسة الملك) و (سراج الملوك) للطروشى الأندلسى . وكذلك عن كتاب أرسطو في السياسة . وهو نفسه يرشدنا إلى بعض ذلك في مقدمته إذ يقول: (في الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ، المتداول بين الناس جزء صالح ، إلا أنه غير مستوفي ، ولا معطى حقه من البراهين ، ومحاط بغيره ...) وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسالته من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنـة كما برهناه ... وكذلك حـوم القاضى أبو بكر الطروشى في كتاب سراج الملوك ، أو بوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، لكنه لم يصادف فيه الرـمية ، ولا أصحاب الشـالكة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة^(١))

ثم يذكر جالينوس وكتابه منافع الأعضاء^(٢) ، وبطليموس وكتابه الجغرافيا^(٣) ، وكتاب رجـار للـشـريف الإـدرـيـسى^(٤) ، وكتاب المشـترـك لـيـاقـوت^(٥) ، وكتاب ابن سـعـيد^(٦) وغيرـهم . ويـذـكـر المؤـرـخـين كـابـن اـسـحـقـ وـالـطـبـرىـ وـابـنـ الـكـلـىـ وـالـوـاقـدـىـ وـالـمـسـعـودـىـ وـأـقـيـ حـيـانـ وـابـنـ الرـفـيقـ وـغـيرـهـمـ . ويـذـكـرـ كـثـيرـآـ منـ الـفـلـاسـفـةـ مـثـلـ ابنـ سـيـناـ وـالـفـارـابـىـ وـأـرـسـطـوـ^(٧) .

٣٨ (٣) المقدمة

٣٥ (٢) المقدمة

٣٣ (١) المقدمة

٤٦ (٦) المقدمة

٤٧ (٥) المقدمة

٤٤، ٣٨ (٤) المقدمة

٤٥٦، ٧٢ (٨) المقدمة

٣ (٧) المقدمة

شخصيته

استقى ابن خلدون من سابقيه ، وقرأ المؤلفات التي كانت إلى عصره ،
ولكنه كان ذا شخصية تبرز فيها يكتب .

لذلك نجد المؤرخين في مقدمته ، ورأى أن فن التاريخ (يحتاج إلى مأخذ متعددة أو معارف متنوعة ، وحسن نظر وثبت ، يفضيان بصاحبها إلى الحق ، وينكبان به عن المزلاط والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيه من العثور ، ومرلة القدم والجيد عن جادة الطريق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والواقع ، لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سيناً ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر وال بصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وناهوا في يدأ الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر .) ثم يضرب أمثلة على ذلك (١) .

ويرى أن يتزود المؤرخ بثقافات شتى (يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاء والأعصار ، في السير والأخلاق والعادات والتّحل والذاهب وسائل الأحوال ، والإهاطة بالحاضر من ذلك ، ومائة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو من الخلاف ، والقيام على أصول الدول والمملل ، ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ،

(١) المقدمة

وأحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون المؤرخ مستوعاً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر . وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاهما كان صحيحاً ، وإلا زيفه واستغنى عنه ^(١) .

وبهذا النظر العميق ، والفحص الدقيق وضع ابن خلدون أساس علم التاريخ وفلسفة الاجتماع ، لأن البحث التي سبقة غيره إليها كانت ضئيلة وبمبعثرة ، ولا يجمعها منهج ، فليست دراسة علمية موحدة ، ولن يست لها أصول تعتمد عليها ، ولا أهداف ترجى إليها .

لكنه قرأ ذلك وقرأ غيره ، وأحاله مادة أخرى جديدة ، ذات منهج مرسوم وخطة بيته ، وطابع خاص ، حتى ليصح له أن يقول (واعلم أن الكلام في هذا الغرض - يريد الاجتماع - مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، أعنّ علىه البحث ، وأدى إليه الغوص ...) ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ، لا أدرى ، ألغفلتهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ، ولم يصل إلينا ... وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم ...) ^(٢)

ومن الطبيعي أن يكون ابن خلدون قد أعاد تنقيح مقدمته ، وراجع تاريخه في مصر ، لأنّه بعد خمسة عشر عاماً من تأليف كتابه أهدى نسخة منه وهو في القاهرة إلى سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز بن أبي الحسن ، فلا بد أنه نقحها في خلال هذه المدة .

ويؤكّد بعض مؤرخيه أنه نقحها وحذف منها وأضاف إليها ، ويرون

أنه كتب في مصر فصولاً جدداً . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد كانت بين مصر وأفريقيا وبين مصر والأندلس صلات مستمرة ، مكتته من أن يطلع على الإنتاج العقلى فى مصر . وهو نفسه يذكر ذلك فى عدة مواضع من المقدمة ، منها إعجابه بكتاب المغنى الذى ألفه جمال الدين بن هشام المصرى فيقول (ووصل إلينا بال المغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائنا ، استوفى منه أحكام الأعراب بجملة ومفصلة ... وسماه المغنى في الأعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، ووفر بضاعته منها ... فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه)^(١) .

ويذكر أن حضارة تونس متأثرة بحضارة مصر والأندلس^(٢) .

وقد كان في مصر في ذلك العهد ميل إلى التوسيع في المعرف ، وتأليف الموسوعات العلمية كاسبق ، فثلا حاول التويري المتوفى ٧٣٢هـ أن يجمع معارف عصره كلها على اختلاف ألوانها في مؤلف واحد من ثلاثة جزء آسماه (نهاية الأرب) . ووضع العمرى المتوفى ٧٤٨هـ موسوعته الجغرافية في اثنين وثلاثين مجلداً آسمها (مسالك الأبصار في عالمك الأمصار)

ولعل ابن خلدون قد اطلع على هذه المؤلفات فزادته معرفة ، أو نبهته على نواح من النظر لم يكن قد تعمق فيها حينها ألف مقدمته في تونس ، لأن عقله كان خلاقاً ، يرشف القطرة فيحو لها جدوا رقاقاً .

مكانسته وأثره

تتلذد عليه في مصر جمارة من أعلام التفكير المصري ، فأشربوا آراءه الاجتماعية التي كان يذيعها عليهم ، وظهر هذا الأثر جلياً في بعض مؤلفاتهم . فقد درس عليه وتأثره الحافظ بن حجر العسقلاني المحدث والمورخ (٨٥٢ھ) ، وتلذد له وأعجب به المقرizi (٨٤٥ھ) واعتنق مذهبها الاجتماعي ، ورفع مقدمته مكاناعلياً ، وترسه في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) . ويتحدث عن المقدمة فيقول (لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجده منها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأبناء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتبني عن أصل كل موجود ، بلفظ أبيه من الدر النظم^(١) ، وألطف من الماء سري به النسم) . وتأثره في نظرته إلى مصر والمصريين كما سيجي .

وتأثره السخاوي أيضاً في عدة فصول من كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا نحوه القلقشندي (٨٢١ھ) ، ونقل عنه فصولاً في كتابه (صبح الأعشى) .

وقد كانت المقدمة وما زالت مدد الذين يكتبون في الاجتماع وفي تاريخ العلوم ، فقد استعان بها كثيراً حاجي خليفة التركى في كتابه (كشف الظنون) ، وخير الدين باشا التونسي في مقدمة تاريخه ، ووجدت باشا التركى في تاريخه

وأبو الطيب صديق حسن خان الهندي ملك باهوبال في كتابه أبجد العلوم ، وقد نقل عن ابن خلدون كثيراً ، والعلامة طاش زاده في كتابه مفتاح السعادة ، والقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الهندي في كتابه دستور العلامة أو جامع العلوم .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر عن الغربيون بدراسة النظريات الاجتماعية لابن خلدون ، وجدوا أنه قد سبق إلى كثير من النظريات ، وعالجها قبل أن يعالجها علماء الغرب بقرون ، نعم ، فقد طرق نظريات ردها بعده مكيافيلي ، وفيكتور ، ومونسكى ، وأدم سميث ، وأوجست كنت ^(١) . وكان المعتقد أن البحث الغربي هو الذي تهوى إلى فلسفة التاريخ ، ومبادئ الاجتماع وأصول الاقتصاد ، فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور ، ويعالج في مقدمته كثيراً من مناحي هذه الموضوعات بقوة وبراعة .

لذلك يرى كثير من الغربيين والشريين تشابهاً قوياً أحياناً بين آراء ابن خلدون وآراء مونتسكى كاسنرى في البيئة الطبيعية والاجتماعية ، ويرون تشابهاً قوياً بين بعض آرائه وآراء جستاف لوبيون .

أما مكانته العلمية العالمية فذاه عسى أن نقول فيها أكثر من أنه مبتكر

(١) ابن خلدون . محمد عبد الله عنان ص ١٤٦ مكيافيلي : مؤرخ وسياسي إيطالي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . فيكتور : مؤرخ وفيلسوف إيطالي (١٦٦٨ - ١٧٤٤) مونتسكى : مشرع وفيلسوف اجتماعى فرنسي (١٦٦٩ - ١٧٥٥) آدم سميث : اقتصادى انكليزى (١٧٢٣ - ١٧٩٠) . كونت : فيلسوف فرنسي وهو واضح أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

فلسفة التاريخ ، وواضع علم الاجتماع ، والسباق إلى كثير من الآراء الحديثة
التي يظن الكثير أنها من ابتداع الغرب ؟

وقد شاد بذكره الغربيون وأعجبوا بعقريته . يقول العالم الاجتماعي
جِيلُوقتش : «إن ابن خلدون عرف تأثير البيئة والتسلية بالوسط قبل أن يعرفه
دارون بخمسة قرون ، وسبق ميكافيلي في سياساته التي رسماها للأمير . ويقول
أيضاً (لقد أردنا أن ندلل على أنه جاء قبل أو جوست كونت ، بل قبل
(فيكو) الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوروبى مسلم
تقى فدرس الطواهر الاجتماعية بعقل متزن ، أو ألى في هذا الموضوع بأراء
عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع »^(١) ويوافقه في هذا
الرأى العلامة الاجتماعي الإيطالي (فريرو) والكاتب الاجتماعي الروسي
(ليفين) والأستاذ الأمريكي (ناتانيل)^(٢) .

ويرى (دى بوير) الهولندي أن ابن خلدون فيلسوف في صف
ابن سينا وابن رشد والغزالى وابن الطفيل . ويختتم بحثه عن ابن خلدون
بقوله (لقد أمل ابن خلدون فيمن يخلفه ، فيتم بحثه من المسلمين ، ولكن
أمله لم يتحقق ، وبقى يغير خلف كا كان بغير سلف)^(٣) .

والحق إن ابن خلدون نظر بين أيدينا من ثمرات أفكاره الرطب الجنى
اليابع ، في التاريخ وفلسفته ، وعلم الاجتماع ، وتاريخ العلوم ، والتربية ،
لذلك حظى بتقدير عظيم في العصر الحديث ، فترجمت مقدمته إلى كثير من
اللغات ، وكتب عنه كثير من العلماء في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا

(١) ابن خلدون ١٥٢ عنان (٢) ابن خلدون ١٥٢ (٣) ابن خلدون ١٥٠

وأمريكا ، وتبهله المصريون فطبعوا كتابه وقرموه وفهموه ، وكتب بعضهم دراسات قيمة عن نظرياته .

لكنهم جميعاً خصوا بعثاتهم آراءه في الاجتماع أو أصول التاريخ والاقتصاد ، وتحطموا آراءه المتصلة بالتربيـة ، سواء في ذلك التربية بمعناها الخاص ، والتربية بمعناها العام (أى عواملها غير المقصودة كالبيئة الطبيعية والاجتماعية) ، وعلم النفس . كما أغفلوا مكانته الأدبية وخصائصه الأسلوبية .

وستكون دراسة هذه النواحي دراسة تفصيلية ، ونظمها في نهج واحد من موضوعات هذا الكتاب .

التربية الإسلامية قبله

كَفِ المُسْلِمُونَ أَيْمًا كَافِ بِالْعِلْمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، وَشُغْفُوا أَيْمًا
شُغْفٌ بِنَسْرِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ بَلْدٍ حَلَوْهُ أَوْ احْتَلَوهُ ، حَتَّى لَقِدْ أَثْرَ عَنْهُمْ إِذَا
مَا هَبُطُوا مِصْرًا سَارُوا إِلَى بَنَاءِ مَسْجِدٍ وَمَدْرَسَةٍ ، فَكَانَتِ الْمَآذِنُ تَتَجَاوبُ ،
وَحُلْقَاتُ الدُّرُوسِ تَتَنَاوِبُ ، فَقَامَتِ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى الدِّينِ
وَعَلَى الْعِلْمِ .

وَقَدْ ضَرَبَ الْمُسْلِمُونَ بِسَهَامِهِمْ فِي أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ عِلْمَ شَرِيعَةِ (فَقِهٍ
وَتَفْسِيرٍ وَحَدِيثٍ) وَعِلْمَ أَدِيَّةِ (نَحُوٍ وَصَرْفٍ وَبِلَاغَةٍ وَعَرْوَضٍ وَلُغَةٍ
وَكِتَابَةٍ وَقِرَاءَاتٍ وَتَارِيخٍ) وَعِلْمَ رِياضِيَّةِ (هِنْدِسَةٍ وَفَلَكٍ وَحِسَابٍ وَجِبْرٍ
وَمُوسَيْقٍ وَسِيَاسَةٍ وَتَصُوفٍ وَأَخْلَاقٍ) وَعِلْمَ عَقْلِيَّةِ (مَنْطِقٍ ، وَمَنْاظِرٍ ،
وَعَقَائِدٍ وَسَعْيَاتٍ ، وَطَبٍ ، وَأَصْوَلٍ وَكِيمِيَّةٍ وَعِلْمَ طَبِيعَةٍ) ، وَعِلْمَ مُنْوَعَةٍ (مَسَاحَةٍ وَطَبٍ يَبْطَرِي زَرَاعَةً وَسَعْرَةً وَتَنْسِيجٍ وَتَفْسِيرِ أَحَدَامٍ)^(١) .
وَكَانَتِ الْمَدَارِسُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يَكَادُ يَحْصِي عَدَدُهَا ، وَكَانَتْ
تَقْسِيمًا إِلَى ابْتَدَائِيَّةٍ وَثَانِيَّةٍ وَعَالِيَّةٍ .

فَنَ الطَّبِيعِيُّ أَنْ يُسْهِمَ الْمَرْبُونَ فِي هَذَا الْمَحَالِ ، وَهُمْ قَدْ أَسْهَمُوا ، وَقَدْ
كَثُرُوا ، وَبِحَسْبِنَا أَنْ نَذْكُرَ بَعْضَ أَعْلَمِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوا ابْنَ خَلْدُونَ ، وَهُمْ
كَثِيرٌ ، مِنْهُمُ الْجَاحِظُ — الْمُتَوْفِيُّ سَنَةُ ٢٥٥ھـ — فَقَدْ نَثَرَ فِي مَوْلَفَاتِهِ كَثِيرًا
مِنْ آرَائِهِ وَآرَاءِ سَابِقِيهِ مَتَّصَلَةً بِالتَّرْبِيَّةِ ، وَنَسْبَ إِلَيْهِ يَاقُوتُ كِتَابُ الْمُعْلِمِينَ^(٢)

(١) تَقْسِيمُ أَبِي يَحْيَى ذَكْرِيَا الْأَنْصَارِيِّ فِي كِتَابِهِ (الْأَلْوَافُ النَّظِيمُ فِي رُومِ التَّعْلِمِ وَالْتَّعْلِيمِ) ص٧ (٢) مَعْجمُ الْأَدِبِيَّاتِ ١٦ / ١٠٧

وهو لم يصل إلينا . و منهم أَحْمَدُ بْنُ سَهْلِ الْبَلْخِيِّ - المُتَوْفِيُّ سَنَةُ ٣٢٢ هـ -
وكان معلماً رفعه علمه إلى مرتبة علمية ، وله كتب شتى منها كتاب أقسام
العلوم ، وكتاب ذم المعلمين والوراقين ، وكتاب أدب السلطان والرعيَّة ،
وكتاب أخلاق الأُمَّم^(١) . و منهم الفارابي - المُتَوْفِيُّ سَنَةُ ٥٣٣ هـ - مؤلف
آراء أهل المدينة الفاضلة ، ورسالة السياسة ، وابن سينا - المُتَوْفِيُّ سَنَةُ ٥٤٢ هـ -
مؤلف هديَّةُ الْأَمِير ، وهي رسالة في القوى الإنسانية ، والشفاء وهو أوسع
كتاب عربي فلسفى ، والنهاية وهو مختصر له في ثلاثة أجزاء ، وله رسالة
في السياسة . و منهم إخوان الصفا - القرن الرابع - و لهم رسائل مشهورة
عدها إحدى و خمسون رسالة ، وهي دائرة معارف فلسفية علمية .

ثم جاء بعد هؤلاء النَّفَرِ الْقَرْطَبِيِّ - القرن الخامس - مؤلف جامع
بيان العلم ، والغزالى - القرن السادس - صاحب الإحياء ، وفاتحة العلوم ،
وميزان العمل . والشهروذى - القرن السادس - مؤلف آداب المريدين .
والزَّنْجِيِّ - القرن السابع - مؤلف تعلم المتعلم طريق التعلم . وابن جماعة
- القرن الثامن - صاحب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم .

هؤلاء وغيرهم قد سبقو ابن خلدون ، وكانت لهم آراء شتى في مناحي
التربية ، في مناهج الدراسة ، ونظمها ، وطرقها ، وفي أخلاق الطلبة والمعلمين الخ ،
وسنتين من دراستنا لابن خلدون نواحي المشابهات والمفارقات بينه وبينهم ،
وسنوازن بين آرائهم وآرائهم ، وبين آرائهم وأراء غيرهم من المربين والعلماء
الغربيين .

وإني لأرجو أن تكون هذه الدراسة عونا على جلاء ناحية مجهولة
أو مهملة من نواحي علامتنا السَّكِير .

البيئة الطبيعية وآثارها

نوطنة

نقل ابن خلدون تقسيم الأقاليم عن الشهير الإدريسي ، من كتابه الذي
ألفه للملك رجاء الثاني ملك صقلية في منتصف القرن السادس الهجري ،
فقال إن نصف الأرض الشمالي سبعة أقاليم ، وهو النصف المعمور ، أما
النصف الجنوبي فإن حرارته الشديدة وماه الغامر يجعلان العمران فيه نادراً
قليلاً^(١).

وكان الإدريسي نفسه يعتقد أن النصف الجنوبي قفر خلي من الإنساني ،
لشدة حرارته وإنعدام مائه ، لكن ابن رشد رأى غير هذا الرأي ، إذ قرر
أن النصف الجنوبي كالشمالي في طبيعته وسكانه وهبوط الحرارة في بعض
 أنحائه ، فهي تهبط ما ابتعدنا عن خط الاستواء . ورأى ابن خلدون أن
الشاهد والأخبار المتواترة تدحض الرأي الذي يجرد من العمران خط
الاستواء وما وراءه ، على أنه عمران قليل . ثم قال : وقد زعم ابن رشد
أن خط الاستواء معتدل ، وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه من
الشمال ، فيعمر منه ما عمر من هذا ، والذى قاله غير ممتنع من جهة فساد
التكوين ، وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب ؛ لأن الغنصر
المائي عمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذى كان مقابلة من الجهة الشمالية
قابل للتكوين ، ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه^(٢) .

وإذا ما رجعنا إلى رأى الإدريسي - عمدة ابن خلدون في الجغرافيا^(١) -

وجدناه يحدد هذه الأقاليم في خريطته التي نشرها الأستاذ كونراد ميلر الألماني، فالإقليم الأول يبدأ من خط الاستواء إلى درجة ٢٣ شمالاً، والثاني من ٢٤ إلى ٢٩، والثالث من ٣٠ إلى ٣٥، والرابع من ٣٦ إلى ٤١، والخامس من ٤٢ إلى ٤٧، والسادس من ٤٨ إلى ٥٣، والسابع من ٥٤ إلى ٥٩. وإذ كانت نظرية الإدريسي أن المعمور من نصف الكرة الشمالي ينتهي إلى درجة ٦٣، لأن ما بعدها شديد البرودة مضمور بالثلوج غير صالح للحياة وال عمران، إذ كانت نظريته كذلك فقد أضاف إلى الإقليم السابع أربع درجات أخرى، وبهذا ينتهي نصف الأرض المعمور بدرجة ٦٣ شمالاً.

وقد جرى ابن خلدون هذا التقسيم، ورأى أن الإقليم الرابع - من ٢٦ إلى ٤ درجة شمالاً - أكثر الأقاليم اعتدالاً، وما على حفافيَّه من من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال. ورأى أن الإقليم الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال، وأن الأول والسابع أكثر بعدها. فالإقليم المعتدل هي الثالث والرابع والخامس (٣٠ - ٤٧ شمالاً) على تفاوتها في مقدار الاعتدال^(٢).

أثر البيئة الطبيعية في الجسم

عرض ابن خلدون لتأثير البيئة الطبيعية في الجسم والعقول والأخلاق^(٣)، وذهب إلى أن سكان الأقاليم المعتدلة ثلاثة (أهل المغرب والشام والنجاشي واليمن وال العراق والهند والسندي والصين والأندلس ومن

(١) المقدمة ٤٤ (٢) المقدمة ٤٣ - ٦٩ (٣) المقدمة إلى ١٠٧

قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونان) أعدل أجساما وأصنف
ألوانا (٤).

وقال إن سكان الأقاليم الحارة سود ، لأن الشمس تسامت ^{رم وسم}
مرتين متقاربتين في كل سنة ، فتسفعهم بحرارتها وضوئها ، وتلوح جلودهم
بنارها . وقد أخطأوا الذين عزوا سوادهم إلى دعوة جدهم نوح على أبيهم
حام ، لأن في هذا الكلام غفلة عن طبيعة الحر وأثرها في الألوان وفي
الحيوان (٥) .

وقال إن سكان الإقليمين السادس والسابع يبغى البشرة ، لأن
هواءهم بارد ، والشمس لا تتجاوز آفاقهم في أوجها ، فيضعف الحر ، ويشد
البرد عامه الفصول ، فتبغى الألوان ، وتزرق العيون ، وتصبب الشعور ،
وتبرش الجلد ، لهذا قال ابن سينا في أرجوزته .

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقب اكتست البياضا حتى غدت جلودها بضاضا (٦)
ورأى أن الناس الذين يعيشون في إقليم قفر ^{مشحح} يقتاتون بالتأفه
من الطعام أقوى أجسامنا من المترفين الناعمين ، فألوانهم أصنف ، وأبدانهم
أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، لأن كثرة الأغذية في المطر تختلف في الجسم
فضلاً رديئة فاسدة ، ينشأ عنها انكساف اللون وذبوله ، وقبح الشكل
وترهل الجسم . وهو يوضح رأيه ^{ويدعوه} بالموازنة بين حيوان القفر
وحيوان الخصب ، بين الغزال والماعز ، والزرافة والبعير ، والمهأة والبقرة ،

ويقرر أن يبنها بـَوْنا بعيداً في صفاء أديمها ، وحسن رونقها ، وأشكالها ،
وتناسب أعضائها ، وحدة مداركها .

لذلك يقرر أن الجوع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول وصلاحها ،
وأن الغذاء يشكل المتغذى به ، فالذين يتعاطون لحم الأنماع الضخام ينشئون
ضخاماً ، والذين يشربون ألبان الإبل ويأكلون لحومها أصبر على الشدائـد
وأقوى احتمالاً (١) .

تعليق :

نقف هنا وقفـة قصيرة ، نناقش فيها ابن خلدون ، فنؤيدـه في بعض
ما ذهب إليه ونسـيرـه ، ونخـالـفـه في بعضـه ونـغـاـيـرـه .

أما تأثير الجو في تلوين البشرة فلا ريب فيه ، وقد يـمـا فرقـ الجوـ بينـ
الـأـلوـانـ النـاسـ ، فـكـانـ مـنـهـمـ الـأـيـضـ وـالـأـسـوـدـ وـالـأـحـمـرـ وـالـأـصـفـرـ . وإنـ
الـأـيـضـ لـيـسـوـ دـُـإـذاـ ماـ أـقـامـ يـاـقـلـيمـ حـارـ وـتـعـرـضـ لـلـهـواـجـرـ ، وإنـ الـأـسـوـدـ
لـتـنـصـلـ خـمـتـهـ قـلـيلـاـ جـداـ إـذـاـ ماـ أـقـامـ يـاـقـلـيمـ مـعـتـدـلـ أوـ بـارـدـ ، وـلـاـ جـرـمـ يـظـهـرـ
الـأـثـرـ وـيـقـوـيـ كـلـمـاـ مـرـتـ السـنـوـنـ ، وـتـتـابـعـ الـبـنـوـتـ ، فـتـنـقـلـ الـأـلوـانـ إـلـىـ
الـذـرـارـىـ بـالـورـاثـةـ . فالـسـوـادـ وـالـبـيـاضـ ، وـالـحـمـرـةـ وـالـصـفـرـةـ ، لـمـ تـكـنـ الـأـلوـانـاـ
طـبـيـعـيـةـ فـيـ الـأـصـوـلـ إـلـىـ الـأـوـلـيـنـ الـذـينـ انـخـدـرـتـ مـنـهـمـ الـبـشـرـيـةـ ، وـإـنـمـاـ اـكتـسـبـوـهـاـ
مـنـ الـبـيـئةـ الـطـبـيـعـيـةـ ، وـصـارـتـ بـتـقـادـمـ الزـمـنـ صـفـةـ وـرـاثـيـةـ تـنـحدـرـ مـنـ الـأـصـوـلـ
إـلـىـ الـفـرـوـعـ .

وـأـمـاـ أـجـسـامـ الـبـادـيـنـ أـحـسـنـ اـعـتـدـالـاـ وـقـوـاـمـاـ ، وـأـنـمـ أـصـفـ الـأـلوـانـاـ

من أهل الحضر . فإن هذا موضع نظر . حقيقة إن الغذاء قد يكثُر في الحواضر بحيث تَتَخَمُ به المعد ، ويضخم منه الجسم فيصبح ، لكن ذلك قليل الحدوث . ولن ينكر أحد أن ألوان الحضر أصفر وأجل من ألوان البدو ، وأن البدو كثيرًا ما يكون ذايل اللون ، ذاوي الجسم ، نحيل الجسد ، معروق العظم .

إن الحياة والقوه والنضاره لا تتجلى إلا في المعده الرَّاغِد ، والرزق الْوَفِر ،
والخيرات الْكُثُر ، وهى من حظ الحضر لا من حظ البدو .

وأما أن الجوع أصلح للبدن ، وأدعى إلى صفاء العقول ، فذلك رأى صائب ، ولكن إلى حد ، فإن ابن خلدون ييدو لنا في إيمانه بهذه الفكرة مُشَرِّبًاً مذاهب المتصوفة ، فهو يعتقد أن في قدرة الإنسان أن يستغنِ عن الطعام شيئاً فشيئاً ، حتى لقد صدق أن امرأتين من الجزيرة الخضراء جيستا أنفسهما عن الأكل جملة سنوات ^(١) .

أرجح أنه كان متأثراً بأراء المتصوفة الدائمة في عهده ، لأنها تغرس في تعذيب الجسم وإنكاره ، وتذهب إلى أن الجوع يصفي الأرواح من أدران المادة ، ويعينها على اشتلاف الحقائق . وهو يشير إلى هذا التأثر بقوله : إن من عود نفسه الجوع والاستغناء عن الطعام بالتدريج والرياضة لا يهلك كا يفعل المتصوفة وأهل الرياضيات ^(٢) . فإن أراد ابن خلدون من الجوع هذا الجوع المؤقت الذي لا يلذع الأحشاء ، ويشعر الجائع أن أحشاءه يأكل بعضها بعضاً ، فأنما معه . ومن الذي لا يستشعر من نفسه صفاء الفكر ، وسداد الرأي ، والشوق إلى العمل العقلاني ، وانشراح الصدر ، ما دام شبه

جائع ؟ فإذا ملأ المعدة أحس بالكسل والثقل ، وعزف عن التفكير الهنيليسير . وإن أراد الجموع الصوفى الذى تهالك فيه المعدة والأمعاء بعضها على بعض ، فيشعر الجائع أن فى حشائه أنياباً تعض وتهش فلسنا معه . وأما أن الغذاء يشكل المتغذى به فصحيح ، إذ أن للأغذية آثاراً في الجسم والعقل والخلق دعت بعض العلماء إلى جعلها مقاييساً للحكم على الجماعات والأفراد . وقد دلت التجارب على أن تغيير الأغذية تغيراً خاصاً يحدث تغييراً كبيراً في الأمزجة ، ووجد أن بعض الميول الإجرامية أو العادات المضرة بالمجتمع الناشئة عن بعض الأمزجة علاقة بنوع الطعام الذى يتناوله المجرم . ولحظ بعض الأطباء أن إطعام القتلة المجرمين نوعاً خاصاً من الطعام يخفف من أمزجتهم ، ويلطف من طباعهم . وأن تناول بعض العقاقير والأدوية على استمرار يؤدى إلى تغير محسوس في الأمزجة ، وتقدم في الأخلاق ، وبعد عن الإجرام ^(١) :

وليس معنى ذلك أن نوافق ابن خلدون على أن الذين يتعاطون ألبان الإبل ولحمها أصبر على الشدائـد ، وأضخم أجساماً من الذين لا يتعاطونها ، لأن المشاهد ينكر ذلك ، فلا يفتقر إلى دفع .

على أن ابن خلدون أغفل بعض آثار الجو في الجسم ، كتأثيره في حجمها وجرتها وسمكتها وطولها وقصرها الخ . فسكان البلاد الباردة كالإسكيمو واللابلاند أقزام ، وسكان المناطق المعتدلة فارعة أجسامهم ، مكتنزة عضلاتهم .

أثرها في العقول والحضارة

يقول إن الأقاليم المعتدلة الثلاثة مهد التفكير ، ومهبط الوحي ، ولم نعرف نبياً مبعوثاً في غيرها ، لأن الله تعالى اختص برسله أكرم خلقه . وإن هذه الأقاليم مهد العلوم والصناعات ، والافتتان في الملابس والأقواء ، والتنافس في الرفاهة ، وأهلوها يتعاملون بالتقدير النقيسين الذهب والفضة ، وفيهم وشجت أعراق الملك والنبوة وازدهر العلم والفن والصنعة . ويذهب إلى أن سكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال متاخرون في الحضارة ، فهم يسكنون في بيوت من الطين والقصب ، ويقتاتون بالذرة والعشب ، ويلبسون أوراق الشجر يخصنفونها عليهم ، أو الجلد ، وأكثربن عرايا . وهم متواحشون يأكل بعضهم بعضاً كما نقل عن السودان والصقالبة . وهم لا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من مناطق الاعتدال ، مثل الحبشة المجاورين لليمن ، فقد أخذوا عنهم النصرانية ، أو مثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين للمغرب فقد أخذوا عنهم الإسلام ولا يعرض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والاحقاف وببلاد الحجاز في الإقليم الأول والثاني ، لأن جزيرة العرب محاطة بالبحار من جهاتها الثلاث نخففت الرطوبة بعض حرها ^(١) .

تعليق :

عم ابن خلدون حكمه السابق ، بفرجه التعميم إلى خطأ تاريخي ، ذلك أنه حسب أن النصرانية قد انتقلت من اليمن إلى الحبشة ، والحقيقة غير ذلك ،

فقد وفدت المسيحية إلى اليمن من الحبشة ومن غيرها^(١) ، ووجد أن اليمن — وهي ذات حضارة عظيمة قديمة — وغيرها من بلاد العرب قد أسهمت في ميدان الحضارة ، وهي في المنطقة الأولى والثانية ، فاحتقر ، ونسب إلى البحر المحيط بها من ثلاثة جهات تلطيفاً وتحفيقاً .

على أن نظريته في جملتها صحيحة ، لأن الحضارات بدأت كلها في أقاليم معتدلة ، وعلى ضفاف الأنهار . وما من شك في أن أمميات الحضارات الأولى : مصر وآشور وبابل والصين وشمال الهند ، كلها في المنطقة المعتدلة ، وقد ازدهرت حضارتها على ضفاف النيل ودجلة والفرات والسدن والنهر الأصفر ، ولم تنشأ الحضارات في هذه البيئات المتماثلة إلا بعوامل يسرّتها البيئة .

ذلك أن برودة الجو في الأقاليم الشماليّة أبعدت الإنسان عن الحصول على غذائه ، وعن التجربة والبحث لإبداع حضارة .

ولأن الأقاليم الحارة الجنوبيّة زاخرة بالحيوانات الضواري ، وموبوعة بأمراض شتى تفتّك بالإنسان والحيوان ، فلا سبيل إلى التفكير وإنشاء حضارة .

لهذا نشأت الحضارات في المناطق المعتدلة أولاً ، ثم تخطّتها إلى ما يجاورها من الأقاليم الباردة . فازدهرت الحضارة في مصر والشام والعراق والصين

١٢٦ والعرب قبل الإسلام History of the Arabs, p. 67. by Hitti. (١)

جرجي زيدان . والكامل لابن الأثير ١٤٩/١ وسيرة ابن هشام ٣٠/١ و The Back ground of Islam, P. 112, Philby و تاريخ ابن خلدون ٦١/٢ ومعجم البلدان

و شمال الهند ، ثم في بلاد اليونان وإيطاليا ، ثم فيما يصادفهم شمالا .

وما يعزز ذلك في العصر الحديث أن الأوروبيين كشفوا عن أمريكا في القرن الخامس عشر ، واستعمروا بها ، وانتشروا في أنحائها ، ونحن نعلم أن الأمريكيتين تحيطان بخط الاستواء ، وأن فيما أنواع المناخ والجواء . ولكننا نجد أن الحضارة والنشاط والإنتاج والنبوغ مخصوصة في المناطق الباردة من أمريكا ، تتميز بها الولايات المتحدة وجنوب كندا ، ونجد أن سكان الأقاليم الاستوائية من سلالة الأوروبيين متختلفون في تفكيرهم وصناعتهم وحضارتهم ، وضعف الأجسام والأخلاق . وما ذلك إلا من تأثير الجو من ناحية ، وانتشار الأمراض الطففية من ناحية .

على أن التجارب أثبتت أن الجو المعبد والهواء اللطيف المنعش ينبعان أعصاب الحس ، وينشطان الدورة الدموية ، ويساعدان على الهضم والامتصاص ، ويخفزان إلى العمل والإنتاج .

أما الجو الحار الرطب فإنه يبعث على الخمول الجسمى والذهنى ، لأن حرارة الجو وحرارة الجسم تفتران الأعضاء وتخدران الأعصاب .

لهذا كان ابن خلدون على بعض الحق حينما عزا إلى الأقاليم الثلاثة أنها مهد الحضارة . وجائب الحق في اعتقاده أن الحضارة لا تنشأ إلا في هذه الأقاليم . وحسبنا الآن أن نكتفى برد عاجل على ما ذهب إليه من جهين الرد الكامل إلى التعليق العام ، فنقول إن التفكير والترقى والتقدم من آثار الاجتماع في أي إقليم صالح لبعث الحضارة ، سواء كان من الأقاليم الثلاثة أم من غيرها ، لأن العلوم والصناعات تكثرون وتحود حيث يطمئن الناس على حياتهم وعلى أرزاقهم ، ولأن العقل يبتكر ويفكر ويثر حيـث المجال

ميسّر للاطّلاع والابداع والمران . وليس — أدل على ذلك من — أن الحضارة الحديثة تزعمها شعوب لا تقيم في المناطق الثلاث كرأى ابن خلدون، لأنّها خارجة على خط ٤٧ درجة شمالاً ، كفرنسا وألمانيا والسويد وإنجلترا .

أثّرها في الأخلاق

١ — يقول إن الفرح والسرور ناشئ من انتشار الروح الحيواني وتفشي في الجسم ، وإن الحزن ناشئ من انقباضه وتكلّفه .

ثم يقول إن الحرارة تفتشي الهواء والبخار ، وتزيد مقداره . لهذا يحس السكران بالفرح لأنّه يحس بالحرارة التي تبعثها سورة الحر في جسمه ، فيتشي روحه الحيواني ، ويفرح ، وكذلك نجد الذين يستحمون في الحمامات ، فهم إذا تنفسوا في هوائهما ، واتصلت حرارة الهواء بأرواحهم شعروا بالسخونة ، فحدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم إلى الغناء الناشئ عن المسرة .

ويبني على ذلك أن سكان الإقليم الحار أسرع إلى الفرح والسرور من سكان الأقاليم المعتدلة ، وأكثر انبساطاً ، وأقرب إلى الطيش . ولما كان السودانيون ساكنين في الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزاجتهم ، وفي أصل تكوينهم ، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقلיהם ، ف تكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرّاً ، ف تكون أكثر تفشيًّا ، ف تكون أسرع فرحاً وسروراً ، وأكثر انبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذه ،

وأحق بهؤلاء سكان الشّطآن ، لأنّ هواءهم حار من أبخرة البحر .

واستشهد على رأيه بأهل مصر ، فقال : « واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها في مثل عرض البلاد الجزرية أو قريبة منها ، حيث غالب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى إنهم لا يدخلون أقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة ما كلامهم من أسواقهم »

وقال إن فاس متوجلة في التلول الباردة ، لذلك فإن أهلها مُفْزِطون في نظر العواقب ، حتى إن الرجل يدخل قوت سنتين .

وأرجع الأخلاق إلى الجو وحده ، وذكر أن المسعودي حاول أن يعلل لخفة السودان وطيشهم وشيوخ الطرب فيهم ، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس والكندي أن ذلك لضعف أدمعتهم ، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وعقب على ذلك بقوله : « وهذا كلام لا محصل له ، ولا برهان فيه » (١) .

٢ - وقرر أن أخلاق البدو أسمى وأنبل من أخلاق الحضر ، لأنها لم تدنس بعادات سيئة أو مشاهدة مذمومة مما يقع في المدن والقرى ، ثم لأنهم يعتمدون على نفوسهم في حفظ حياتهم ، مدفوعين بتفرقهم في القفار ، وتفردهم عن المجتمع ، وانقطاع الشرطة عنهم ، لا سور يتحجّر الأعداء دونهم ، ولا جدار يطمئنهم على سلامتهم ، وإنما تحميهم أسلحتهم ، وتقيمهم يقظتهم « فهم دائمًا يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب ، ويتجاهلون عن الهجوع إلا غرارا ، في المجالس ، وعلى الرحال ، وفوق الأقطاب . ويتو جسون للنبات والهيئات ، ويتفرون في القفر والبيداء ، مدعين بآسيهم واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم الأساس خلقا ، والشجاعة سجية ، أما أهل

الحضر فإنهم منكرون على الملاذ ، والترف ، ومقبولون على الدنيا ، وعากفون على الشهوات ، حتى لقد تعرّوا من الخشمة . ثم إنهم يخضعون دائمًا لذى سلطة ، وكثيراً ما يكون جباراً مستبدًا ، يكسر من بأسمهم . وكثيراً ما يعاقب على الجرائم ، وقبول العقاب مذلة ومذهب للباس . وحتى الأحكام التأديبية التعليمية التي يؤخذ بها الصبي من صغره تربيه على الزهبة والخافة . ويستدرك على ذلك بأن الصحابة قد خضعوا لحكم الشرع ولم ينقص بأسمهم؛ لأنهم خضعوا لوازع نفسي لا لتأديب تعليمي أو قسرى ، والأحكام الشرعية مبنية على الواقع الديني الذاتي لا على الواقع الخارجي السلطاني^(١) .

٣ — ويقرر أن البدو قد تعودوا الجموع ، وعزفوا عن اللذات ، وأنهم أعبد الله وأخشى من الحضر أهل الخصب والترف ، لأن من آثار الحضارة الافتتان في الرفاهة أو الكلف بالنعيم ، والتألق في جميع المرافق ، وينشأ عن ذلك نَهَمْ إلى اللذات ، وخضوع الشهوات ، وإسراف في النفقات وعصيان الله .

٤ — وإذا عزا إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار فقد اشترط في المدن

شرطين :

أما الأول فيدور حول الوقاية من الأضرار ، بأن تَسُور ، وتحتَنَط في مكان منيع كتل أو جزيرة ، ليصعب على العدو أن ينالها ، ولتبعد عنها المناقع والمروج المتغنة ، والمياه الرواكد ، فلا يحمل الهواء جرائم الأمراض إلى الإنسان والحيوان من ميادة الماء الآسن .

وأما الثاني فيكفل احتلال المنافع ، وذلك بأن تكون المدينة على نهر

أو قرية من عين ثرة ، طيبة المرعى للسائمة ، دانية المزارع ، وذلك كله لتوفير الراحة لسكانها ، وتسهيل حصولهم على حاجاتهم ، فيرتقى العمران ^(١).

تعليقات

١ - لا نصافح ابن خلدون على تعليله لفرح والحزن والطيش والحل ، لأنّه يقول إن الحرارة تسرى في الروح ، وهذا كلام عام ، لا يقره العلم . وأقرب منه إلى الصحة قول مونتيسكيو في كتابه روح القوانين : إن الهواء البارد يقبض أطراف الأنسجة الخارجية ، فيزداد نشاطها ، ويساعد على درجوع الدم منها إلى القلب ، ويضعف تمدد هذه الأنسجة ، ويزيدها قوة . أما الهواء الحار فإنه يرخي أطرافها ويمدّها ، فتضعف قوتها ونشاطها ^(٢) . فهو يرى أن للهواء الحار أثراً غير الذي رأه ابن خلدون ، يرى أنه يمدد الأنسجة ويملؤها بالدم ، على حين رأى ابن خلدون أنه ينشر في الجسم الروح الحيواني .

ثم يقول مونتيسكيو « تنبه أطراف الأعصاب في البلاد الحارة ، لأنّ أنسجة الجلد تمدد ، فتحملها الأمور التافهة على أشد العمل . أما في البلاد الباردة فإنّ أنسجة الجلد تقبض وتتشكّش حلماتها ، وتبقي شعب الأطراف الصغيرة للأعصاب مشلولة إلى حد ما ، فلا يصل إلا حساس إلى المخ إلا إذا كان قوياً جداً ، وصادراً من جميع الأعصاب . ولكن الخيال والذوق والشعور والنشاط تتوقف على عدد لانهاية له من الإحساسات الصغيرة » ^(٣) .

(١) المقدمة ٢٩١ - ٢٩٣

(٢) De l'Esprit Des lois. P. 389

(٣) الفصل السابق

فيعلل للخفة في الأقاليم الحارة ، وللرزانة في الأقاليم الباردة تعليلا
مقبولاً معقولاً .

وقد استدل ابن خلدون على نظريته بالرجل الذي يسخن روحه
الحيوانى في الحمام فيغنى وينتشرى ، واستدل منتسكىو بمثل آخر هو الرجل
الذى تشد عليه الحرارة بفأمة ، فترتخى أنسجة جسمه ، فيضيق صدره ،
وتکاد تختنق أنفاسه .

٢ - ونحن مع ابن خلدون في أن البدو أئق أخلاقاً من الحضر ، وإن
كانت حياة البايدية المقرفة الضنك باعثاً على السلب والنهب والقتل والتلصص
والترصد . ولكن هذه ينابيع الفتوة والرجولة والشجاعة .

وهو على الحق أيضاً في أن حياة الحضر فاسدة ، لأنها تضطر الناس إلى
المغالبة في الرزق ، والمجاهدة في جمع المال ، سداً للحاجات واستكمالاً للرفاه ،
فيكثر التحاسد والتعادى والغش ، والتحايل على المال من كل وجه . ثم إن
الحضر سراع إلى الكذب ، والخث في الآيمان ، وأبعد عن الاحتشام
وأقرب إلى الفسق واستباحة ما يأبه الدين والخلق الكريم .

وهم أيضاً أهيبُ من البدو ، وأجزع وأهلع .

وعلى الجملة فإن الحضارة تجني على الأخلاق ، بقدر ما ترهف العقول .
أما البايدية فأهلها يقنعون بما نالوا ، ولا يطمعون في رفاهة أو تأنق ،
وهم مقتصدون في لذاتهم وشهواتهم .

وليس أدل على ذلك من أن العالم في القرن العشرين قد بلغ ذروة
الحضارة والتفكير ، ولكنه كان يصعد إلى هذه الذروة ويتحفف من بعض
فضائله ، حتى لنجد رذائل البدوى من غارة ونهب صغائر بالقياس إلى فظائع

الحضري المعاصر . فالسلب في البدائية صار في الحاضرة فتحا واستعماراً وإفساداً للضمائر والأخلاق ، والقتل بالسيف والرمح والنبل استحال في الحاضرة قتلاً بالمدفع والقنبلة ، وجرائم الأمراض ، وأخيراً بالقنبلة الذرية والهيدروجينية .

ولست أغلو إذ أقرر أن رذائل البدائية قائمة كلها في الحاضرة في ثوبها الحقيق أو زيها المستعار . بينما يتصف البدوى بفضائل لا يتصف بها الحضري ، وإذا تحلى ببعضها أو بها كلها فإنه لا يُشرّبها كما يُشرّبها البدوى ، كالشجاعة والكرم والغيرة على النساء ، وحماية الجار ، وإغاثة اللہيف ، ونبادة المستصرخ ، والشمم والعزة ، والثقة بالله .. وكم في الحاضرة من مسكنجد لا يلبى ، ومنتصف لا يعان ، ومنكر لا يقاوم ، وعرض مثلوم لا يراق على جوانبه دم .

٢ - كسر ابن خلدون بحثه على آثار البيئة في الجسم والعقول والحضارات ، ولم يشر إلى أثرها في الخيال وفي الأدب . وهى لاشك اليتبوع الذى يستقى منه الأدباء معانיהם وأخيلتهم وكثيراً من موضوعاتهم . والأمثلة كثيرة من أدباء أثروا بيئتهم في خيالهم وأفكارهم وأغراضهم وحياتهم .

فالشعر العربي في الجاهلية رجع قوى للبيئة البدوية ، ومصور صادق لحياة العرب ، والشعر العباسى والأندلسى صدى للبيئة وللحياة إلى حد بعيد . فذو الرمة مثلاً شاعر كلف بالبدائية ، مفتون في استيهائها وتصویرها والحديث عنها .

وابن خفاجة الشاعر الأندلسى كان يخرج إلى الفضاء ليسمع خرير المياه

ويستمتع بمشاهد الطبيعة ، من حيث ينسجم ، أو برق يومض ، أو جدول يترقرق ، وقد أثر هذا في خياله وشعره أيماناً تأثير .

وكم من كتبوا عن شكسبير عزوا نبوغه إلى نشأته الأولى على ضفاف نهر (الأون) الجميل وواديه الخصيب . حيث الشجر الملتئف ، والزرع النضير ، وغابة (أردان) الساحرة .

ولقد بلغ من تأثيره بهذه المجال الرائعة أنه لم ينسها إذ نزح من ستراثفورد ، بل ذكرها وصورها ، وجلاها واستوحها في قصته (كاثب وترضى) .

وأوليفر جولد سميث كان يحب لشوى مسقط رأسه ومدرج شبابه ، فلما أقام بلندن ظلل يذكر الطاحون والجدول والكنيسة ، ومشاهد لشوى ، وشاد بها في قصته (الابن) . وواشنجتون إرفنج الكاتب الرحالة ينسب إلى نشأته على نهر أوتسون كل شيء فيقول : « إن ما كسبه طبعي المختلف العناصر من الخير والتحذيب يصح أن أرجعه إلى محبتى لهذا النهر في صغري ، فقد كنت في الصبا أكسوه بعض الخصائص النفسية ، وأعتقد أن له روحًا يقوم بها ، وأعجب بما في طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لأنه ليس من الأنهار التي تسم صفحاتها عن خداع . وتضمر الشر بما تحتها من شعاب مهلكة وصخور غدارة . . . وكانت أتخيل نوعاً من المجد في استقامته وسكننته » .

على أنا نعلم أن الناس مختلفون في ميولهم ، وأمزاجهم ، وتقديرهم للأشياء ، وكثيراً ما يتالم شخص ما ينبهج به آخر . لكنهم جميعاً خاضعون لتأثير البيئة الطبيعية على درجات متفاوتة .

٤ - وإذا كان ابن خلدون قد عزا إلى الحرارة نشر الروح الحيواني في الجسم ، فتأخذه نشوة وخفة وطرب أو تهور ونرق ، فما رأيه في الإسكيمو - وهم يقطنون أبعد بقاع العالم - وإسراعهم إلى الطرد ، وخفتهم إلى المرح ؟

٥ - ومن الذي يوافقه على رأيه الجائز في المصريين ؟ لقد ذهب إلى أن المصري سادر النظر عن العواقب ، طائش ، لا يدخل قوت شهر في بيته . والحق إن المصري ليس أسرع افعالا من الفرنسي أو الإيطالي ، وفرنسا وإيطاليا في إقليم لم ينسب إليه ابن خلدون خفة ولا نرقا . والحق إن المصري حريص على ادخار قوته ، ويقاد يكون الادخار إعادة متصلة عامة في مصر .

وإذا كان ابن خلدون قد قسا على المصريين هذه القسوة ، فإنه قد كتب ذلك قبل أن يهدى إلى مصر ويخبر أحواها ، ولعله غيره في نسخة لم يصل إلينا ، أو لعله أبقاءه ، لأن حياته في مصر كانت شائكة ، فلم يشعر نحو المصريين بحب .

على أثر تلميذه المقرizi قد حاكاه في قسوته ، إذ نسب إلى البيئة المصرية بعث الجن والضعف والاستسلام ، واستدل على ذلك بخلو مصر من الأسود . كأن الأسود إذا وجدت في بلد ألتقت في نفوس أهلية من شجاعتها ، وأن كل وطن لا آساد فيه مقر للجن والمملع .

يقول : « هواء مصر وما ها رديثان ، وجوهاً كثير التقلب ، وكل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر في سخافة الأبدان ، وضعف القوى ، وكثرة التغير ، وسرعة الوقع في الأمراض .

والمصريون قليلو الصبر والجلد ، تغلب عليهم الدعة والجبن والقنوط والشح والخوف والحسد والنعمة والكذب ... ومن أجل ذلك لا تسكتها الأسود ، وإذا دخلتها ذلت ولم تتناسل . وكلاها أقل جرأة من كلاب غيرها ،^(١) .

ومن أسف أن هذه الدعاوى تسللت إلى بعض المصريين فثبتت عزائمهم وجنت على ثقتهم في أنفسهم .

ولا شك أن المصري شجاع ، وقد سجل جرأته وبسالته في مواطن شتى ، في عهد صلاح الدين و محمد على ، بله في عهود الفراعنة . ونهضة مصر الأخيرة تدحض هذه الدعاوى ، فقد تفوق المصريون في العلوم والفنون والصناعات ، ومارسوا أعمالاً جساماً تتطلب حصافة فكر وسداد رأي وبعد نظر .

تعليق عام على آرائه

في البيئة الطبيعية

١ - منذ عصر بعيد أدرك المفكرون العلاقة بين المناخ والأخلاق ، فلم يكن ابن خلدون ولا منتسكيو أول من أدرك هذه العلاقة . ذلك أن كثيراً من المفكرين سبقوهما ، مثل (برمنيدس) و (إمدوكليس) و (جالينوس) و (بقراط) ، وقد اتفق بقراط رأى إمدوكليس في أن اختلاط العناصر الأربع : الهواء والماء والنار والتراب ، على نظام خاص ينبع كائناً ذاتاً صفات خاصة ، وزاد عليه أن الأجسام تتشكل وتتصف بصفات

أربع هي البرودة والحرارة والرطوبة والجفاف ، وعن هذه الصفات مثني
مثني تنشأ السواقل الأربع . وهذه السواقل تتأثر بالغذاء وبالجو . وليس
تأثير الجو فيها مقصوراً على اختلاف أقاليمها ، بل إنه يتغير في الإقليم
الواحد تبعاً لفصول السنة^(١) . ثم لحظ أرسطو أثر البيئة في نظم المدن
السياسية .

على أن الجاحظ أشار في كتابه الحيوان ، وفي بعض رسائله إلى تأثير
البيئة في جسم الإنسان وفي أخلاقه ، وكذلك أشار ابن سينا في أرجوزته
التي نقل منها ابن خلدون بيتين استشهد بهما في تعليمه لسودان السوادن ،
ولكن هؤلاء وأولئك لم يوصلوا نظرية ، أو يفصلوا فكرة ، أو يستنتجوا
نتائج .

أما ابن خلدون فإنه قد أصل وفصل واستنتج ، وتفهم التاريخ على
ضوء نظريته في البيئة الطبيعية وفي البيئة الاجتماعية ، فهو إذا صاحب النظرية
ومخترع الفكرة .

ولئن كان قد وقف قسطاً عظيماً من مقدمته على آثار البيئة الطبيعية في
الجسم والعقل والخلق ونظم المجتمع وآرائه وعاداته لقد وقف من بعده
العلامة منتسكيو قسطاً عظيماً من كتابه (روح القوانين) لبيان هذا التأثير ،
مثل (تأثير الموقع الجغرافي في القوانين) و (تأثير الجو الجغرافي في بلاد
الشرق في الدين والعادات) و (تأثير الجو في نظام الحكومات الملكية)
و (أثر جو إنجلترا في نفسيات سكانها) و (علاقة الجو بنظام الرق)

و (علاقة التربة بمدينة السكان) و (تأثير طبيعة الأرض في القانون المدنى) ^(١) الخ .

٢ — وإذا كان ابن خلدون ومنتسيكي قد أصلًا النظرية وفصلاً القول ، فإنهم نسبياً إلى البيئة الطبيعية أكثر مما لها من آثار ، فهي في رأيهما التي تقدر مستقبل الفرد من النواحي الجسمية والعقلية والخلقية ، فينفذ ما قدرت ، وتدبر حالة المجتمع من الناحية الاقتصادية والسياسية فيما قبضت به . ولكن في هذا التقدير للبيئة الطبيعية سخام ، وإغفالاً للمؤثرات الأخرى ، ولجهد الإنسان نفسه .

فليست البيئة الطبيعية إلا أحد المؤثرات في حياة الفرد والجماعة ، فالأسرة والمعلمون والمجتمع والعلوم والأديان ، والبيئة الاجتماعية بنظمها الاقتصادية والسياسية ، والوارثة والميل ، كل هذه مؤثرات في حياة الفرد وفي حياة المجتمع .

ثم إن الأفراد والجماعات كثيراً ما يتذرون بالعلم والصناعة والحيلة والتجربة فيقاومون البيئة ، ويختضعونها ، ويصرّفونها كما يشاؤون ، وبذلك يتحللون من تأثيرها ، ويؤثرون فيها ، كأن يقع الناس أنفسهم من الحر ومن البرد بوسائل شتى ، أو يُنْبَتُوا في الأرض المجدبة ما لذ وطاب من الحب والفاكهـة . ونحن نرى في العصر الحاضر أن وسائل العلم والاختراع تساعد أيمـا مساعدة على مقاومة البيئة ونقض أحكامها ، فيـ المـجزـيرـةـ الـعـرـيـةـ مثلاً سيارات وطـيـارـات وـثـلـاجـاتـ وـمـراـوحـ وـمـكـيفـاتـ للـهـوـاءـ ،ـ وهـذـهـ وـغـيـرـهـاـ منـ جـنـودـ التـغلـبـ عـلـىـ الـبيـئةـ أوـ مـقاـومـتـهاـ وـتـخـفـيفـ تـأـيـرـهـاـ

والإنسان الرافق ما زال يخضع البيئة ويشكلها بما يلائمه ، فال الأوروبي الذي يقطن في المناطق الحارة ينتقى مسكنه على جبل أو تل ليعيش في جو ألطاف ، والإنسان الذي يقيم في الصحراء يضرب حوله نطاقاً من الزرع والشجر . وكثيراً ما قاوم الناس الجو والزرع والحيوان والبحر والجبل والصحراء والتهار ، فاتخذوا من الريح والبخار والماء قوى ، وهم يحاولون الآن أن يتخدوا هماً من الشمس ، وأن يخزنوا حرارتها ، وهم يكتسحون بعض الغابات ويزرعون أماكنها كما حدث في غرب أوروبا وفي كندا وشرق الولايات المتحدة .

والإنسان يغالب البحر الطاغي على اليابس ، فيجفف البحيرات والمناقع ، ويتخذ منها مزارع ، كما حدث في بحيرة لنكولن في شرق إنجلترا ، وفي شواطئ نيوزيلندة ، وفي الفيوم ، وكما سيحدث في بحيرة مريوط وأدكو والمزلة والبرلس .

ولقد صدق المولى لحي إذ قال في كتابه عيسى بن هشام يصف الغربيين ، أهل الغرب يطوفون البر والبحر ، ويقطعون الحَزْنَ والوعر ، ويطيرون في السماء ، ويُمْشِّون على الماء ، ويخرقون الجبال ، ويفسرون التلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويبسطون الربا مهادا ، ويحللون القفار بحاراً ، ويحللون البحار بخاراً ، ويحمدون الهواء ، وينبتون الحصبة ، ويستحدثون الأنواع ، فكأنهم جن سليمان ، في هذا الزمان ،^(١) .

٢ - وقد اختلف ابن خلدون ومونسكيو في النتائج التي انتهيا إليها وخالفوا أرسطو فيما كان قد تَهَدَّى إليه . وهذا دليل على أن البيئة الطبيعية

(١) حديث عيسى بن هشام

ليست كل شيء . فأرسسطو كان يرى أن الشعب اليوناني هو أستاذ الحضارة والعلم ، وأن العالم كله مدین له ، وأن سكان أوروبا شجعان جداً ولكنهم غير أذكياء ، وأن الشعوب الآسيوية مفرطة الذكاء ولكن تعوزها الشجاعة . أما الشعب اليوناني فإنه بين آسيا وأوروبا الغربية فهو يشغل الوسط (١) ، ولذلك يتصرف بالذكاء والشجاعة معاً .

وابن خلدون يرى أن سكان العراق والشام ومصر هم المتفوقون على العالم ؛ لأن بيتهما خير البيئات ، كما سبق .

ومونتسكيو يرى في الأمم الشمالية المثل الأعلى .

فكل من الثلاثة متأثر بعصره وبأمته ، ينظر إليها راقية رائدة ، فينسب رقيها إلى البيئة الطبيعية ، ويفسّي أن الحضارة الإنسانية دولة بين الناس . فقد سبقت الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة الأشورية والبابلية حضارة اليونان ، وسبقت الحضارة العربية حضارة أوروبا الحديثة وأثرت فيها . إذا فليست البيئة الطبيعية هي الخلاقة للحضارات كما أشار أرسسطو ، وكافضل ابن خلدون ، وكما زاد التفصيل مونتسكيو .

٤ - وكثير من المحدثين لا ينسبون إلى البيئة الطبيعية كل الآثار ، ويعزون تباين الناس في أخلاقهم وأمزاجتهم إلى عوامل أخرى .

فنـ المحدثين من ذهب إلى أن الأخلاق والأمزاجة ناشئة من تغيرات جسمية تؤثر في المخ والمجموع العصبي ، وعن تأثيرها تنتـج مظاهر الشعور مختلفة في الأفراد كاختلاف هذه التغيرات .

(١) السياسة . السكتاب الرابع الفصل السادس وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية

٧٤ الدكتور طه حسين .

ومنهم من أرجعها إلى آثار السوايال التي تفرزها الغدد الصماء فتحتاط بالدم ، وتنبعث إلى الجسم كله ، فتشطه أو تخمد ، وتهدي "العصب أو تثيره ، وأولى هذه الغدد الغدة الدرقية .

وقلة من المحدثين رأوا رأى القدامي أن المناخ تأثيراً كبيراً في الأخلاق ، متأثرين بما يشهدون من تباين الأخلاق في الأقاليم ، زاعمين أن من ينتقل من مناخ إلى آخر يكسب مزاجاً غير مزاجه الأول . لكن هذا رأى مردود ، لأن التغير ناشيء من سبب آخر كتبديل الحالة الصحية ، أو التقدم في السن .

وقد ذهب (رودلف هرمان لوتز Rudolf Herman Lotze) الفيلسوف الألماني إلى أن للسن أثراً عظيماً في المزاج ، فكل مرحلة من مراحل العمر مزاجها ، للطفولة مزاج له خصائصه ، وللشباب آخر له ظواهره ، وللرجولة مزاج له ميزاته ، وللشيخوخة مزاج له سماته .

والحق إنه من المتعدد أن نخضع التباين في الأخلاق والأمزجة إلى مؤثر واحد . ومن الخطأ أن نسم شخصاً بأنه ذو خلق ثابت أو مزاج موحد ، بينما هو لا يستقر على حال ، يثور آنا ويهدأ آنا ، يتغامل تارة ويتسامم تارة ، يغضب حيناً ويحلم حيناً . لذلك يقول الأستاذ (ثاولس Thouless) : لا شك أنه من الضروري أن نعدل آراء القدماء في أوصاف الأمزجة ، لكنك نعلم أن الشخص الواحد قد تظهر عليه آثار أمزجة مختلفة في أوقات متعددة .

ويقول الأستاذ (مكنْ John Maccunn) : إذا حلانا المزاج وجذناه مؤلفاً من عناصر متعددة ، وإننا لنصل إذا حاولنا أن نرجع المزاج إلى

عنصر واحد من كياننا العقلي أو الجسمى دون غيره .

ويقول الأستاذ (مكدو جل McDougall) « نستطيع أن نعرف المزاج بأنه مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكميائية التي تحدث في أنسجة الجسم باستمرار ... والمزاج كرأى القدماء يرجع على الأخص إلى التكوين الجسمى ، ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً »^(١) .

٥ - لن ننسب إلى الجو وحده تباين الأخلاق والأمزجة ، غافلين عن الحال الجسمية من صحة أو مرض ، فإن سوء الهضم ، ومرض النقرس ، ومرض السكر مثلاً تشير الغضب . ثم لن نغفل عن تأثير الإفراز الداخلي ودرج السن ونوع الغذاء .

ونزيد أن نعلم الحقيقة في آراء الذين ينسبون إلى البيئة الطبيعية هذه الآثار الخطيرة ، ونعرف مقدار ما فيها من صواب ، ولنا أن نشك فيها أول الأمر ، لأن القائلين بها مختلفون في تطبيقها ، متاثرون بما رأوا في عهودهم . فلقد اتهم أرساطو شعور أوروبا بالغباء ، وأضاف على شعوب آسيا الذكاء ، وأضاف إلى الأولين الحرارة والبسالة ، وسلبهما الآخرين ، ثم نسب إلى شعبه اليوناني الفضيلتين معاً : الذكاء والشجاعة .

وابن خلدون رأى الحضارة في عصره ومن قبله قد أينعت في الشام والعراق ، بجعل الإقليم الرابع مثله الأعلى .

ومنتسكيو برهنه حضارة الأمم الشهالية فاعتدها مثله الأعلى .

إن من حقنا أن نرتاب في هذه الآراء وأن نبالغ في الارتياب ، ماداموا هم أنفسهم قد تباينوا في نشدان المثل الأعلى .

(١) في علم النفس ٢٣٩/٣

ونحن نعلم أن آخر درجة في نطاق الإقليم الرابع — موطن الحضارة عند ابن خلدون — هي الدرجة السابعة والأربعون شمالاً ، ولكننا نجد فرنسا تبدأ من الخامسة والأربعين تقريرياً ، وأن شمالها وهو خارج كله عن نطاق ابن خلدون أروع مدينة من جنوبيها .

ونجد إنجلترا تبدأ بعد نطاق ابن خلدون . وهي كلها خارجة عنه . ومثلها ألمانيا ، والسويد . وإذا فإن الحضارة تزدهر وتنضج ، والعقول تتحصل وتنتج ، والعلوم تحيا وتبتعد ، والصناعات تتذكر وتختبر ، والأدب يحصل ويذرو ويشر ، في أقاليم جردها ابن خلدون من ميزات الترقى والنهوض .

٦ — وليس أبلغ في الدلالة على أن مثل آراء ابن خلدون ومنتسيكيو في البيئة الطبيعية وقيمة من أن العالم الحديث لم يسلم من مذاهب في البيئة والحضارة جائزة أبداً جور . وربما كان أول داعية إلى هذه الفكرة يقيم عليها نظريته في التفريق والاجناس (ماكس مولر) اللغوى الأديب المتفاسف . فقد استنبط من دراسته اللغوية أن هناك أجناساً سماها الهندية الجرمانية ، أو الآرية ، وذهب إلى أنها كانت فيما مضى جنساً واحداً ، وهؤلاء هم الصفة الممتازة من البشر الذين تميزوا بالتفكير والإبداع والقيادة .

وقد عاصره سياسى فرنسي هو الكونت دي (جوبينو) فدعا إلى نظرية الاجناس ، ونشرها سنة ١٨٥٣ . وموجز نظريته أن المخلوقات كلها تخضع لقانون طبىعى أزلى يميز بعضها من بعض . ففي الحيوان نرى الحيوان العربية مثلاً أفضل من غيرها ، وفي النبات نرى الورد الجورى ذا رائحة أزكى من غيره ، وفي الجاد نجد الفولاذ أقوى وأمن ، وكذلك الإنسان ،

فإنما نجد عدد النابغين يكثُر في شعب دون آخر ، والشعب الذي يكثُر النابغون فيه شعب ممتاز ، فمن حقه أن يسيطر على غيره .

ثم يخلص بعد ذلك إلى أن الأمم الشماليّة ذات البشرة البيضاء سباقة إلى المدنية والرق ، على أنها ليست كلها سواء ، فالعظمة مخصوصة في العنصر الآري وحده ، أما الساميون فلا يمتنعون بشيء ؛ لأنهم أحاط من أن يصلوا إلى مستوى العنصر الآري .

ثم غلا (شبرلن) في تعميم هذه البدعة ، وتعصب للجرمانية ، حتى لقد رأى أنه من المحال على غير الجermanي أن ينبع ، وإذا كان قد نبع أشخاص لا يمتنون إلى الجermanية بحسب صريح فإنه يمتنون إليها بعرق خفي .

ومنذ أعوام كانت تجاوب في ألمانيا وشمال أمريكا صيحات بأن الجنس التيوتوني أو الشمالي أرق الأجناس ، وأن الحضارة بلغت شاؤها في بلاده . وكان من الغلاة في هذا المذهب العلامة النفسي الشهير مكدوجل .

ولم ننس بعد أن ألمانيا الهمتلية كانت مغرقة في تعصبه للجرمانية ، حتى لقد طردت اليهود من بلادها ، وأبغضت الساميين ، وازدرت الشرقيين ، وزعمت أنهم غير جديرين بالحرية والاستقلال ؛ لأنهم في أشد الحاجة إلى الخضوع للشعوب الآرية .

وكان هتلر وأنصاره يدینون بأن أبل خصائص الإنسانية أصلية في الجنس الجermanي ، وأن الساميين الشرقيين لم يكن لهم نصيب في ترقية العالم ، وأنهم لن يستطيعوا أن ينهضوا به ، فإذا ما كذبتم نهضة اليابان — وهي أمة شرقية — ادعوا أنها أمة مقلدة ليست لها سمات خاصة في حضارتها ، فهي تحاكي الغرب ولا تبتكر .

في حين أن عالماً أمريكياً هو (اليود ث هنفينجن) يرى أن أنساب
الجواد للنهوض والابتكار جو بريطانيا واليابان ، وأن الأقاليم الأخرى
تصاحل للترقى والنهوض بنسبة شبيهها بهذا الجو .

ولو أن هؤلاء جميعاً أنصفوا الساموا أنفسهم : لماذا لا يحدث تغيير البيئة
آثاراً في عقلية المتنقل من إقليم إلى آخر ؟

وإذا كان هذا التغيير يحدث بعد زمان طويل فإنه برهان على أن هناك
عوامل أخرى مشفوعة إلى البيئة الطبيعية .
ومن يدري ماذا يحجب الغيب ؟

فقد ترحل الحضارة من عالمها الحالى إلى إقليم آخر جرده هؤلاء
جميعاً من صفات الترقى والنهوض ، فيظهر عالم يتأثر بما يشهد ، وينسى
أو يتناهى ماضى الأمم ، فيقرر أن مناخ هذا الإقليم أصلح مكان للرقى
والنهوض .



البيئة الاجتماعية وآثارها

البيئة الاجتماعية هي المظاهر التي تؤثر في الفرد والمجتمع بذاتها ، أو بمقدار الصلة بها . وهذه المظاهر كثيرة ، منها التجارة والصناعة والزراعة والصناعة والعلم والسياسة والدين والأسرة والأخلاق ومظاهر الحضارة عامة .

وقد عرض ابن خلدون لبعض مظاهر البيئة الاجتماعية ، وبين آثارها في الأفراد والجماعات ، وآراؤه في هذه البيئة منشورة في موضع شتى

من المقدمة^(١)

أثر الدين

ن الدين الحق فهو الموحى به إلى رسول ، وهو أحد العوامل الكبرى في تأسيس الدولة وتنمية الأمة ، لأن الملك لا يقام إلا بالغلب ، والغلب لا يمكن أن يكون إلا بالعصبية ، والأهواء المتفقة ، والقلوب المؤتلفة ، والنفوس المتشتتة ، ولا يتحقق شيء من هذا إلا بمعونة من الله في إقامة دينه ، قال تعالى : أَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أُلفت بين قلوبهم ، ولكن الله أَلْفَ

لـ السر في ذلك ، أن القلوب إذا تداعت إلى الباطل ، ومالت إلى الدنيا خلخل التنافس ، وفسا الاختلاف . وإذا انتصرت إلى الحق ، ورفضت الباطل ، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس ، وقل

، ٢٩٣-٢٩١، ١٣٢، ١٣١، ١٢٣، ١٠٦-١٠٣، ٧٧-٦٩ (١) المقدمة

٤٨٧، ٢٦٤، ٣٦٢، ٣٢٤-٣٢١، ٣١٢، ٠٤-٢٠٢

الخلاف ، واستتمكن التعاون والتساند ، واتسع نطاق الكلمة فعظمت
الدولة ،^(١)

ويرى أن الدين يزيد الدولة قوة على قوة العصبية التي لها من عددها ،
ويشهد على ذلك من فتوح العرب .

نعلمون .

وهو على الحق في هذا ، فإننا لا نستطيع أن نعلم السبب الحقيقي في فتح
المسلمين سراعاً بلاد الفرس والروم ، إن أغلقنا العصبية التي تدعها حماسة
الإسلام ، وتستندها خلال الصحراء ، في حين كان الضعف الاجتماعي
يقوض هيكل الروم والفرس . حقاً إن الدين هو العمد القوية في بناء
الدولة ، ولكن ليس السبب أن الله يعين عباده على إقامة دينه كما ذهب
ابن خلدون . فإن الدلائل تنشأ وتنمو وهي على غير دليل مصلحي كالبيان
وكثير من أمم العالم القديم ، وقد تنشأ دول وتنمو وهي هاجرة لذرتها
وإنما السبب الصحيح أن الدين ضروري في تأسيس الدولة وتقديرها ^{لأنه}
يؤلف بين القلوب المتنافرة ، ويجمع الأهواء المبعثرة ، ويوحد الأهداف
المكثرة ، والإنسان أبداً يتغصب لرأيه ، ويناصر من يشاركه في إزعمته
وأى رأى أسمى من الدين ؟ « اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأذهبوا
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

ولقد ذهب كرام إلى أن ابن خلدون لا يعد الدين سبباً من أسباب
الدولة ، وعاملها من عوامل الحضارة ، بل يجعله في المنزلة الثانية والميكان
التابع ، وهذا غير صحيح ، لأن ابن خلدون يعتبر الدين شرطاً أساسياً

في الحضارة وبناء الدولة كالعصبية^(١). وهو لهذا لا يقر الخلاف بين الفلسفة والدين ، ويحاول التوفيق بينهما كما حاول ابن رشد من قبل . ولأنه يرى الفضائل شرطاً لقيام الدولة ، والدين جماع الفضائل الإلهية المزدهرة عن النقص ، ثم إن العصبية المجردة عن الخلال الحميدة عيب في ذوى الأحساب ، فأحرى بها أن تكون أشنع في ذوى السلطان ، والسياسة والحكم ضمان لصالح العباد ، ونيابة عن الله في إعلاء كنته ورعايته عباده ، وذلك كله من الشرع والدين . يقول ابن خلدون « فن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأو نست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه ، فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق ، ووطدت فيه الصلاحية لذلك » ويقول : « والشر أقرب الخلال إلى الإنسان إذا أهمل عوائده ، ولم يهدبه الاقتداء بالدين ».

على أن ابن خلدون لم ينظر إلى الدين إلا أنه كالعصبية دعامة لقيام الدولة وقوتها ، وأنه تكأة تعتمد عليه الجماعة . ولم يذكر آثار الدين في حياة الأفراد من حيث إنه يسلم الجراح الدامية ، ومنار النفوس الضالة ، وسلوى القلوب المحدودة أو المحدودة ، والوازع إلى تهذيب النفس وتطهيرها . إن المؤمن بالله يسمو ياماً فوق المادة ، أو يقرب من رب بقدر إيمانه ، وتعظم نفسه إذ يدعور به أن يكون عونه في الخطب الفادح والرزم الشاده ، لأنه يستمد القوة من رب القوة .

والمجتمع المستمسك بدينه مجتمع فاضل سعيد ، وليس قويًا فحسب كما ذهب ابن خلدون ، لأن رقابة القانون وسطوة السلطان وازع خارجي

يعتمد على القوة ، فاصر لا يرى إلا في الجهرة ، أما رقاية الدين فهي ذاتية ، وهي قديرة بصيرة ، تزع بالعاطفة والأمل ، وتعلم الجهر والنرجوى .

وربما انصرف ابن خلدون عن بيان آثار الدين عامة ، لأنه كان يتحدث عن الدول وعوامل قيامها وأسباب قوتها ، فأولى جانباً واحداً من الدين عنايته ، لأنه أشد اتصالاً بموضوعه .

نظام الحكم

يرى أن الحكم الهين الذين المتساهل يجعل المحكومين مُدلّين بقوتهم وحرارتهم وشجاعتهم وضعف وازعهم ، والحكم الصارم القائم العنيف يخضد شوكتهم ، ويذهب نخوتهم ، ويكسر منعهم ، فيتكلسون ، لأنهم مضطهدون ، ويتعودون الذل والخنوع ؛ لأنهم يُظلمون فلا ينكرون ، ويهانون فلا يدفعون .

أما الحكم العادل فيخلق في النفوس الطاعة والانقياد ، والاهية عن رغبة واقتناع .

ويرى أن الحكم بجميع أنواعه مضعف للأس ، ويستدل على ذلك بأن طلاب العلم الذين مارسو الجلوس إلى الأساتذة والاستماع لهم ضعفاء الشجاعة والأس ، وأن المتحضر ينقدوكوا حمايتهم إلى الشرطة والأسوار والمحصون فنشأ فيهم الجبن . أما البدو فهم معزز عن السلطان وأحكامه^(١) .

نعلمون

وقد جنح هنا أيضاً إلى إيشار حياة البداوة على حياة الحضارة ، وحياة

الفطرة والعرف على حياة النظام والتشريع والحكم ، والقضاء والإدارة . ونرا نا مصطرين إلى مخالفته ، لأننا نرى أن الحكم العادل الحازم يسمى بالأخلاق ، ويفرق بالأمم ، ويُسوى بين الناس في الفرص ، ويجعل للناس حقوقاً مرسومة ، وواجبات معلومة . أما حياة البدو فإنها قائمة على أن الحق للقوة . لهذا يشيع فيها نوع عنيف للفساد والاضطراب والقويضي .

ثم إننا لا نوافقه على أن يجعلوا ^{بكلمة الطلاق} الطلاب إلى أستاذهم يذهب منعهم وباسمهم ، لأنهم يعتادون جلسات التوقيف والمحيبة ^(١) ، ولأنهم يهابون أستاذهم ويحبونه ، فإن هذا لا يعني أن يكونوا ^{بكلمة شجاعاً} حيث تطلب الشجاعة ، وإلا فكيف ينشر التعليم بين الناس ^{بكلمة يحدهم} لكن تعليم غير معلم يحب ويهاب ؟

كتلة السكان

يرى — كارأى الفاربي ^{من قيل} ^(٢) — أن الإنسان مدنى بطبيعة ، فلن يقدر على قضاء حاجاته وحده ، فلابد له من التعاون ، والجماعة المتعاونة تنتج أكثر من الفرد ، سوكمة ^{ولن يجت} العمل فيما بينها ، أم قامت به دفعه واحدة كلها ^(٣) . وبعض ما تنتجه الجماعة يكفيها ، وباقية يرسل إلى الأمصار الأخرى ، ثم ينفق ثمنه في الترف ^{بكلمة} وإذا فكترة السكان من أسباب الثراء والترف والتألق في المساكن ^{بكلمة الملبس} واستجادة الآنية ، واتخاذ الخدم والمراكب .

وإذا كانت هذه الأشياء تشجع على الترف فإنها تروج التجارة والصناعة ،

(١) المقدمة ١٠٦ (٢) آراء أهل المدينة الفاضلة ٥٣ نشره Esprit De

فرديك ديتيرسي Dr. Friedrich Dieterici (٣) المقدمة ٣٥

وتشجع على البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والعرض والطلب ، وإذا تووج وسائل الترف أكثر من قبل ، ويزيد المتن ، ويرتفع أجر العامل والمصانع . إذا فتى كثرة السكان انتعشت الأعمال ، وزاد السكب ، وارتفع الأجراء ، فنشأ الترف ، فاشتد الغلاء وعظمت قيم الأشياء . وإذا كانت كثرة السكان ترفع أسعار وسائل الترف ^{فليذهب في الوقت نفسه تنقص أثمان} الضروريات ، لأنها موقوفة وزائدة على الحاجة .

ويذهب إلى أن ترف المدينة ليس ^{لهم} الأغنياء وحدهم ، بل إن الفقراء يطمحون إلى أن يرموا أيضاً ترفاً غسلية ^{أعم} ، مما يستدل على ذلك بأن السائلين بفاس أحسن حالاً من السائلين بتلمسان ^{أجمع} وهران ، ويقول : « ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي ^{لهم} أثمان صحياتهم ، ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف ، مثل سؤال اللحم والسمن ، وعلاج الطبخ والملابس والماعون ، ولو سأله سائل مثل هذا ^{الظاهر} أو وهران لاستذكر وعنة وجزر ، ويقرر أنه سمع عن أحوال مصر وغيرها العجب ، وأن كثيراً من فقراء المغرب يزحفون إليها بغية ^{لهم} الزواجي ، وما ذلك إلا لأن العمران قد استبخر وعظم بمصر وفاس ^(١) .

^{لهم} تعلبي :

اتفق مونتسكيو مع ابن خلدون في ^{لهم} كثرة السكان وثراءهم مجلة للترف ، ورأى أنهم كلما كثروا في مكان تسلط عليهم الكبر والأذرة حتى ليجهل بعضهم بعضاً ، ورأى أن كثرةهم تستدعي ارتفاع الأثمان : لأن ^{مجده} داورة على

الذين يجيدون أعمالهم يرفعون من قيمتها ، فيحاكيهم في ذلك غيرهم من
الذين لا يجيدون عملهم .

وقرر أن الترف سلم إلى الفجور والتهتك وقلة المبالاة ، وأنه كلما قل في
الأمة زاد كلامها ، وكلما تفشي في أمة آثر أهلوها مصالحهم الذاتية ، وانصرفوا
عن المصالح العامة .

وذهب إلى أن الذين يقنعون بالضروريات هم الذين لا يتغرون إلا
بجد الوطن ^(١) .

على أنه بسط القول في الترف وأسبابه وجراحته ^(٢) .
ويكاد يكون ما ذكره مونتيسكيو تفصيلاً وتدعينا على ما ذكره
ابن خلدون ، وإذا كان ابن خلدون قد اهتم بأثار كثرة السكان في الحياة
الاقتصادية ، فقد تحدث عن آثارها في الجسم والعقل والخلق في موضع
آخر هو الحضارة .

محاكاة المغلوب للغالب

قرر أن المغلوب يعتقد الكمال فيمن غابه ، فيتشبه به في ملبسه ، ونحنته ،
ويحاكيه في أخلاقه ومعيشته ، ويحاكيه في جميع أحواله . وهو مدفوع إلى
هذا التقليد ، لأن الغالب لقنه أن يعظمه ، وبث في روعه أنه ضعيف
متخلف عن قافلة الحياة ، وأوحى إليه أنه غلبه لأنه أقوى منه وأصلح للحياة ،
فيجده المغلوب في التشبيه بغالبه ، ليدركه ويماثله . أو هو مدفوع إلى هذه

المحاكاة ، لأنَّه وَهُم في نفسه الضعف والقصور بسبب الهزيمة والقهر ،
وَتَوْهُم في غالبهِ القوة والـكـال ، فيجـدُـ في المحاكـةـ وـالـنـقلـ وـالـاحـتـذاـهـ (١)

تعليق :

وهذا حق كله ، لأنَّا نتمثله في أحوال الأمم غالبةً ومغلوبةً ، حديثة
وقديمة . فثلا كان العالم في العصور الوسطى يهتدى بالعرب ، ويحاكمهم في
نظمهم ، ويأثر عنهم ثقافتهم وعلومهم وأدابهم ؛ لأن الدولة والقوة كانت
لهم . فلما دالت الأيام وصار الغلـبـ للغربـ أخذـناـ نـقـلـ عنـ الغـربـ بـينـ كلـ شـيءـ ،
ونعتقد أنـهمـ يـفـوقـونـناـ فيـ كـلـ شـيءـ ، حتىـ لـنـكـادـ نـسـيـ خـصـائـصـناـ ، وـحـاجـاتـ
يـتـنـتـنـاـ وـضـرـورـاتـ وـرـاثـتـنـاـ وـمـاضـيـنـاـ .

ولقد اندفع بعض الشرقيين إلى هذا التقليد العجيب ، مخدوعين بدعوى
الاستعمار الباطلة أن الشرقيين عجزة جهله ، يجب أن يستظلوا بالغربيين ،
ويتعلموا منهم ، ويخضعوا لهم ، ويحاكمون فيما يستطيعون أن يحاكمون
فيه . ثم مدفوعين بما يوحى به الاستعمار وبيته من قوة الغرب وتفوقه
وتمييزه بالعقل والقدرة والمهارة في كل ضرب من ضروب الحياة ، لذلك
غرق بعض الشرقيين في المحاكـةـ العـمـيـاءـ ، خـاـكـوـاـ فـيـمـاـ لـاـ يـوـاـمـ تـارـيخـهـ وـيـلـيـهـ
وـجـوـهـ وـعـادـاتـهـ وـدـيـنـهـ ، بل لـقـدـ حـاـكـيـ بـعـضـهـ فـيـمـاـ يـقاـوـمـ عـقـلـهـ الغـربـيـنـ ،
وـفـيـمـاـ لـمـ تـثـبـتـ صـلـاحـيـتـهـ بـعـدـ .

على أنا نصيف إلى تعليل ابن خلدون أن تقليد الضعف للقوى غريزة ،
فالطفل يقلد أبيه وأمه وأستاذه والمتفوق عليه ، والشعوب تحاكى ملوكها في

نظم المعيشة ، لأن الناس على دين ملوكهم ، وكذلك يحاكي المغلوب غالبه
مدفوعاً بغيريزة المحاكاة .

وإذا كانت هذه المحاكاة معيبة أحياناً فإنها عظيمة الأثر في رق الفرد
والجماعة ، لأن المغلوب يقلد غالبه فيضطره التقليد إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة
بأن يقوى ويرقي ، ولو لا هذا التقليد لانبت المتألف وظل منبتاً عن قافلة
الحياة الدائمة على سيرها إلى الأمام .

أثر الحضارة في الأخلاق والعقول

١ - لا شك أن العلوم والصناعات تكثُر وتتجدد حيث الحضارة
والعمران^(١) ، لأنها أمور زائدة على المعاش ، ومني اطمأن الناس على
أرزاقهم اتجهوا إلى ما وراء الأرزاق من علوم وصناعات . والدليل على
ذلك أن بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة والقاهرة لما كثُر
عمرانها ، وازدهرت حضارتها ماجت بالعلم والعلماء والطلاب ، ثم لما شاخ
عمرانها وقل سكانها طُويَت صحفها وجفت أقلامها .

ويضرب المثل بمصر في عهده « ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم
إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لأن عمرانها مستباح ، وحضارتها مستحکمة
منذ آلاف السنين ، فاستحکمت فيها الصنائع ، ومن جملتها تعليم العلم »^(٢)
ويرى أن للحضر عادات ونظمآً وآداباً يلتزمونها ويتوارثونها ،
« ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يکسبها عقولاً
جديداً تستعد به لقبول صناعة أخرى ، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك
لل المعارف ، »

نعلم : -

وهذا حق ، لأن العقل يرقى بالتجارب والمخالطة والاطلاع والمران ، ولا شك أن المران يكسب العقل قوة وحياة ، ويفسح المجال للمحاولات والابتكار ، ولا شك أن المخالطة حافز على التنافس والإنتاج ، وأن حياة الحضارة عون على الاستزادة من الثقافة عامة ، وعون على التعليم المنظم والتعلم منذ الصغر ، وهذا كله لا يكون إلا في المجتمع المتحضر . وفي هذا المجتمع يتميز الإنسان بالبحث النظري والتجريبي ، والإنتاج العلمي ، لأن الحضارة هي البيئة العتيدة للعلوم والصناعات والفنون .

٢ - ويرى أن الحضارة تستدعي الافتتان في الترف ، والكلف بالنعيم ، والتألق في جميع المرافق ، وأن ذلك يستدعي نهاماً إلى اللذات ، وجوعاً إلى الشهوات ، وإنفاقاً عن سعة . وإذا كانت أثمان الحاجات في المدن أعلى منها في القرى والبوادي فإن الإنفاق في المدينة يصير إسراها ، وقد تعجز موارد الشخص عن تحقيق ما يريد ويشهي فيستدين ، ويكلف نفسه ما لا يطيق ، فيمُلِّق ، ويغله الفقر .

وهذه الحياة تجبر الناس على المغالبة في طلب الرزق ، والمحالدة في جمع المال ، سداً للحاجات ، وقضاء للآثار ، وجرياً وراء العادات ، فيكثرون التحسد والتعادى والغش والتحايل ، لذلك فإن الحضريين سرّاع إلى الكذب والخداع في الأيمان ، ميالون إلى السرقة والقمار ، بعيدون عن الاحتشام ، موصوفون بالفسق والفحوج ، وقلة المبالاة بالخلق والعرف . وإذا كثرت هذه الرذائل في أمة أذن الله بخرابها ، وهذا معنى قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمّرناها تدميراً » .

ثم إن الحضري لا يعتمد على نفسه في أكثر حاجاته ، بجزأ أو ترفاً ،
وكلاهما ويل . وهو عاجز عن حماية نفسه ؛ لأنه ألف أن تحرسه الحامية ،
وهو ضعيف التدين في الغالب ^(١) .

تعليق :

أسلفت التعليق على هذا الرأى في البيئة الطبيعية ، فلا حاجة إلى تكرير .
على أن ابن خلدون لا يفتأى يتعصب لحياة البداونة ويتحلى بالذالب على حياة
الحضارة .

أثر الفلاحة في الأخلاق

يرى أن الفلاحة أقدم الصناعات ، لأنها مصدر القوت الضروري لحياة
الإنسان ، وأنها اختصت بالبدو ، لأنه أقدم من الحضر وسابق عليه ^(٢) .

ويرى أنها صناعة الأذلاء المستضعفين ، لذلك لا يحترف بها أحد من
أهل الحضر في الغالب ، ولا من المترفين ، ويستدل على مذلة الفلاحين بقوله
صل الله عليه وسلم وقد رأى سكة (محارثة) بعض دور الانصار :
« ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل » .

ويجعل لذلك بأن الفلاحة تقتضي دفع الضرائب لذوى السلطان ، وكفى
ذلك مذلة لا تتحملها النفوس الآية ، وأنها تستدعي الاستكاثة والمكر
والخداعة للخلاص من القهر والاستطالة ^(٣) .

(٢) المقدمة ٣٤٠

(١) المقدمة ٣١٢ - ٣١٤

(٣) المقدمة ٣٣١

تعلمو :

ليست الفلاحة أقدم الصناعات ، لأن الإنسان مارس الصيد أولا ، واقتات بما نبت الأرض ، ثم مارس الزراعة بعد ذلك .

على أن في هذا الرأي مغalaة وحيها ، فالضرائب تجبي من الصناع والتجار والموظفين كما تجبي من الفلاحين ، والناس جميعا خاضعون للقانون ، معتمدون على الحكومة في الدفاع والحماية ، معرضون جميعا لبطش السلطان وهم يتحايلون للنجاة من عدوانه إن كان مستبداً ظلوما . فلماذا يقصر ابن خلدون هذه الأمور على الفلاحين ؟ أما الحديث الذي استشهد به فعلى فرض صحته فإنه محمول - كذا ذهب البخاري - على الاستكثار من الزراعة وإهمال غيرها .

ولئن كانت الفلاحة من أعمال الضعفاء في بعض الأحيان إن الصناعة والتجارة والعمل في الحكومة من أعمال الكثير من الضعفاء .

على أن لل فلاحة آثارا لم يذكرها ابن خلدون ، هي القناعة والرضا ، والإخلاص إلى الوطن ، والركود الذهني ، مما يجعل الفلاحين أقصى بمدارج طفو لفهم ، وأشبه في عملهم الزراعي بالسابقين من آبائهم ، فلا هم يحبون الهجرة ، ولا هم يجدون في وسائل العمل .

أثر التجارة في العقول والأخلاق

يرى أن التجارة تجني على الخلق ، لأنها مفتقرة إلى المساومة والكذب والخناص في الإيمان ، وتحتاج إلى الغش والخلابة .

ويرى أن التاجر مضطر أن يوطد صلته بالحكومة لتعيينه في قضاياه

الى يشكوا بها حرفاً ، ولئلا تستولى على متاجره إذا افتقرت إلى المال ،
وأنه منهوم إلى الربح ، يتلمسه أحياناً من طرق لا يقرها الشرع ، ولا يرضها
الخلق ، ولا يطمئن إليها العرف . وهي إلى ذلك كله منقصة للذكاء .

ولهذا يتحامها الأشراف وذوو المكانة ، وقد يزاولها بعضهم بوسطائه
وعلمه لا بنفسه ^(١) .

تعليق

ليس ابن خلدون بدعا في هذا الرأي ، فقد قال به منتسكيو بعده بقرون :
« يمكننا أن نقول إن قوانين التجارة تحسن الأخلاق للسبب نفسه في أن
هذه القوانين تقدس الأخلاق ... ورأينا في البلاد التي غلت الروح التجارية
على أهلها أن المضاربة تغشى كل الأعمال الإنسانية وكل الفضائل الخلقية ،
وأن أيسر معونة إنسانية تعمل أو تعطى نظير المال » .

ولكن هل تعتبر هذا الرأي صحيحاً ؟

لعله كان خليقاً بالصحة في عهده ، ولعله خليق بالصحة إلى عهد قريب ،
فإن كثيراً من ذوى الأقدار في الشرق كانوا يترفعون عن الاحتراف
بالتجارة ، أما الآن فقد تغير الحال أو قطع في طريق التغيير مراحل .

فالحكومات الآن لا تستولى على مال التجار كما كان يحدث في عصر
ابن خلدون ، والحرفاء لا يجدون في أكل مال التجار كما كانوا يجدون ،
وليس القضاة وأولو الأمر بحاجة إلى أن يتملقهم التجار ويكسبوا عطفهم
لينصفوهم في قضياتهم كما تحدث ابن خلدون عن عصره .

ثُمَّ إِنْ كَبَارَ التَّجَارِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ الْآنَ كَرَامُ الْخَلْقِ مُوْفَورُو الْمَرْوَةِ ،
وَشَعَارُ التَّجَارَةِ الْحَدِيثَةِ الصَّدْقُ وَالْأَمَانَةُ ، حَتَّى إِنَّ التَّجَارَ يَتَعَامِلُونَ بِالْإِتَهَانِ ،
فَيَشْتَرُونَ سَلْعًا بِمِبَالَعِ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمَالِ إِلَى أَجْلٍ ، ثُمَّ يَفْوُنُ بِوْعُودِهِمْ ،
وَيَسْرُ عَوْنَ إِلَى أَدَاءِ دِيْوَنِهِمْ .

وَقَبْلِ عَصْرِ ابْنِ خَلْدُونَ مَدْحُ الجَاحِظُ التَّجَارَ بِأَنَّهُمْ أُورِعُ النَّاسِ ،
وَأَهْنَؤُهُمْ عِيشَا ، وَآمِنُهُمْ سِرْبَا ، لَأَنَّهُمْ فِي أَفْنِيَتِهِمْ كَالْمُلُوكِ عَلَى أَسْرِهِمْ ،
يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْحَاجَاتِ ، لَا تَلْحِقُهُمْ ذَلَّةٌ فِي مَكَابِسِهِمْ . وَضَرَبَ أَمْثَالَهُمْ عَلَى
شَرْفِهِمْ مِنْ حَالِ قَرِيشٍ ، وَمِنْ اشْتِغَالِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الْصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْتَّجَارَةِ .
ثُمَّ ردَّ عَلَى يَدِّيَّعِيْ أَنَّ التَّجَارَةَ تَصْرِفُ صَاحِبَاهَا عَنِ الْعِلْمِ وَالْأَدْبُرِ بِأَنَّ
كَثِيرًا مِنْ جَلَّ الْعُلَمَاءِ كَانُوا تَجَارَاً ^(١) .

تعليق عام

غلا ابن خلدون في آثار البيئة الاجتماعية ، لكن غلوه هنا أقل من
غلوه في آثار البيئة الطبيعية ، وأخف من غلو كثير من المحدثين الذين
ينسبون إلى البيئة الاجتماعية كل شيء ، فيرون أن الفرد مدین لها بغرائزه
وانفعالاته وميوله وقواه الفكرية ومظاهر نزوعه وسلوكه وأخلاقه ، وأن
عوامل التربية الأخرى كاللعب والوراثة والتقليد ليست إلا جنوداً لهذه
البيئة تأتمر بأمرها ، وتنفذ ما قضت به .

وفي طليعة هؤلاء العلامة الاجتماعي دور كهaim Emil Durkheim
وتلاميذه . حتى لقد ذهبوا إلى أن ما يسميه الفلسفه بأسس التفكير (تقيد

(١) رسالة مدح التجار ١٥٥ من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها سامي .

المدركات بالزمان والمكان ، عدم اجتماع النقيضين الخ) ليس فطريا في الإنسان بل كسبه الناس كسبا بتأثير البيئة الاجتماعية العامة ، مستدلين بأن كثيرا من الأمم التوحشة قد زودتهم بيئتهم بنوع من التفكير يساعدهم اجتماع النقيضين ، ولا يرون خطأ في أن يكون الشيء هو نفسه وغيره في آن واحد^(١). ولكن الحقيقة أن للبيئة الاجتماعية آثارا عظيمة في العقل والخلق ، وإن كانت وحدها لا تقدر على صوغ الناس ، فمن التجربة على عوامل التربية الأخرى كالبيئة الطبيعية واللعب والمحاكاة والوراثة والتعليم أن نخضعها للبيئة الاجتماعية .

تقسيمه للعلوم

كان ابن خلدون أول مؤرخ للعلوم في طراز جامع للحركة العلمية والأدبية في الشرق الإسلامي إلى القرن الثامن الهجري ، فهو عالم بالكتب ، خبير بالعلماء ، متبع تطور الفكر وتشعب جداوله ، بصير بالمنابع والمداول والمساب .

ومازال القسم الذي كتبه في تاريخ العلوم والأدب والصناعات منهل الذين يدرسون تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد أسلفت أسماء كثيرة من المؤلفين الذين اعتمدوا على ابن خلدون ونقلوا عنه أسماء الكتب والعلوم والفنون ، ونقلوا عنه أقسامها .

وهو يرى أن العلم ثمرة لحركة الفكر ، وأن الفكر لا ينضج إلا في المجتمع حيث التربين والخلال ، وأن أنضج الفكر ما كان في المحضر ؛ لأن

البدو والحضر يتفقون في الفهم الذي يدرك مسائل خاصة ، وفي الفهم العادي المتعلق بالمعاملة وتبادل المنافع ، وإن كان الحضر أرق من البدو في ذلك . ثم إن الحضريين يمتازون بالتفكير النظري الذي يربط الأسباب بالأسباب ، ويؤلف الصلات بين الأشياء ، ويستنبط الأفكار العامة التي تقوم عليها العلوم ^(١) .

ويرى أن العلوم ضرورية لتقدير الحضارة ، وأنها ذات أثر عظيم في عقول الناس وأخلاقهم . لهذا خصها ببحث مستفيض في مقدمته ^(٢) . وبوافقه في الاهتمام بالتربيـة والتعليم العـلامة موـنسـكـيـوـ في قوله : « إن قوانـن التـرـيـة هـي أـولـى ماـ تـأـثـرـ بـه مـن الصـغـرـ ، وـهـيـ تـعـدـنـا لـأـنـ نـكـونـ وـطـنـيـنـ صـالـحـيـنـ فـيـ الـأـسـرـةـ وـفـيـ الـأـمـةـ ^(٣) .

وقد قسم العـلـوم إـلـى قـسـمـيـنـ :

قسم طبيعـيـ يـتـهـدـى إـلـى إـلـيـهـ إـلـاـنـسـانـ بـفـكـرـهـ ، وـقـسـمـ نـقـلـىـ يـأـخـذـهـ عـمـنـ وـضـعـهـ . الأول هو العـلـومـ الـحـكـمـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ ، وـهـيـ الـتـيـ يـمـكـنـ أـنـ بـعـرـفـهـ إـلـيـهـ إـلـاـنـسـانـ من تـلـقـاءـ نـفـسـهـ ، وـيـهـتـدـىـ إـلـىـهـ يـادـرـاـكـهـ . وـالـثـانـىـ هوـ الـعـلـومـ الـنـقـلـيـةـ الـوـضـعـيـةـ المستـنـدـةـ إـلـىـ الشـرـعـ ، وـلـاـ بـجـالـ فـيـهـ لـلـعـقـلـ إـلـاـ فـيـ إـلـاحـاقـ الـفـرـوعـ مـنـ مـسـائـلـهـ بـالـأـصـوـلـ . ولـلـعـلـومـ الشـرـعـيـةـ عـلـومـ أـخـرـىـ تـعـيـنـ عـلـىـ فـهـمـهـاـ كـالـتـفـسـيرـ وـالـحـدـيـثـ وـالـقـرـاءـاتـ وـالـفـقـهـ وـأـصـوـلـ الـفـقـهـ وـالـكـلـامـ ، وـعـلـومـ الـلـسـانـ الـعـرـبـيـ منـ لـغـةـ وـنـحـوـ وـبـيـانـ وـأـدـبـ . وـهـذـهـ الـعـلـومـ الشـرـعـيـةـ يـخـتـصـ بـهـاـ إـلـاسـلامـ . أماـ الـعـلـومـ الـعـقـلـيـةـ فـطـبـيـعـةـ لـلـإـلـيـهـ إـلـاـنـسـانـ الـمـفـكـرـ ، وـلـيـسـ مـنـ خـصـائـصـ مـلـةـ .

وهي قديمة في النوع الإنساني . وتشتمل على أربعة علوم : المنطق ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة أو الإلهيات ، والتعاليم أى الهندسة ، والأرثماطيق ، والموسيقى ، والهندسة ، ويرتبها ترتيبا تصاعديا ، فالمنطق أولا ، والتعاليم بعده (الأرثماطيق . الهندسة . الهيئة . الموسيقى) ثم الطبيعيات ، ثم ما وراء الطبيعة .

ولكل علم من هذه فروع ، فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع العدد الحساب والجبر والمقابلة ، ومن فروع الهيئة الأزياج ، والمنطق يتبعها من هذه العلوم كلها مكانة علوم اللسان من الشرعيات .

والفرق بين العلوم الفلسفية والشرعية أن الأولى نتاج الفكر وحده ، والثانية مصدرها الأصيل هو الوحي . والأولى عرضة للصواب والخطأ ، والثانية معصومة من الزلل والخطأ^(١) . ثم شرع يفصل القول في كل علم .

وقد غض من شأن الفلسفة وأنحى عليها ، وهو يريد الفلسفة التي تبحث في الإلهيات وما وراء المادة أو تذكر الخالق سبحانه ، ويختتم كلامه بقوله « هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وأراءهم . ومضارعها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرزا من معاطبها ، ول يكن نظر من ينظر فيها بعد الامتناع من الشرعيات ، والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكُن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ، فقل أن يسلم بذلك من معاطبها^(٢) ..

وإنه لصاحب النظرة ؛ لأن دراسة الفلسفة المتصلة بما وراء المادة يجب

(١) المقدمه ٣٦٤ ، ٤٠١

(٢) المقدمه ٤٥٩

أن تسبق بدراسة للدين حتى لا يتفشى الإلحاد والجرأة على نقد الشرع
من لا يعرفون أصول الشرع .

ثم يتحدث عن الصناعات فيقسمها إلى نوعين . ويرى أن نوعها الأول
ضروري للمران ، كالغلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياة ، ونوعها
الثاني شريف كالخط والكتابة والوراقة والغناء والطب ^(١) ثم يفصل القول
في كل نوع .

الطريقة المثلثة في التعليم

يرى أن التعليم لا يشعر إلا إذا تدرج مع عقل التلميذ واستعداده وقدرته
على الفهم .

١ - لهذا يجب أن يكون على ثلاثة مراحل :

في المرحلة الأولى يلقى الأستاذ على التلميذ أصول المسائل وقواعدها
العامة من العلم الذي يدرسه له . فإذا ما انتهى منها فقد حصل على ملائكة
في ذلك العلم لكنها ضعيفة ، وقصاراً ما هيأته للفهم والتحصيل .

وفي المرحلة الثانية يرجع به إلى العلم نفسه ، فيتوسع في الشرح ،
ولا يتلزم القواعد العامة ، ولا يقتصر على رأى واحد ، وإنما يطلعه على
أوجه الخلاف ، ويعرض عليه أدلة كل فريق ، وبهذا تجود ملائكته .

وفي المرحلة الثالثة يكون الطالب قد شدأ واستقام تفكيره ، ونضج ،
وصار جديراً بإدراك العويس المستغلق ، فعلى المعلم ألا يدع خفياً إلا وضمه
له ، وفتح مغلقه ، وأعانه على إدراكه . وبذلك يدرس العلم كله وقد تهيأت له
ملائكة راسخة فيه .

٢ - وعلى المعلم أن يقرب المعلومات إلى أذهان تلاميذه الباذين ،
مستعيناً بالأمثلة الحسوسه .

٣ - وبعد أن عرض هذه المراحل أشار إلى أن بعض الممتازين تجود
ملكتهم قبل غيرهم ، وانتقد المعلمين الذين يجهلون طرق التعليم الصحيح ،
فيعرضون على المبتدئ علوماً لا تلائم عقله - ويحسبون ذلك هدريياً
وتمرينا - أو يخلطون نهايات العلوم في مبادئها قبل أن يستعد التلميذ لفهمها ،
فيعجز عن وعها ، ويكل ذهنه ، ويحسب العلم صعباً فيتكلسّل عنه ، وينفر
 منه ، ويتجاهلي في هجرانه .

معلمون

٤ - لقد راعى **أفلاطون** ميول الطفل واستعداده في تربيته
وتعليمه ^(١) ، ودعا إليها ابن سينا ، فراعى قدرة الطفل في المنهج الذي يدرس
له ، وراعى ميله « ليعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي مكنته له
مواتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه ، وأنه لو كانت كل الآداب والصناعات
تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلاة والملاءمة إذاما كان أحد غُفلاء
من أدب أو عاريا من صناعة . . . ولذلك نرى واحداً من الناس توأته
البلاغة ، وآخر يتوأته النحو ، وآخر توأته الخطب . . . وآخر يختار علم
المهندسة ، وآخر يختار علم الطب . . . ^(٢) وأشار إلى التدرج من السهل إلى
الصعب ، فيعلم الصبي القرآن أولاً وحروف الهجاء ومعالم الدين ، ويروى الرجل
ثم القصيد ، فإذا ما فرغ من تعلم القرآن وحفظ أصول الفقه وجه إلى
ما يراد له ^(٣) .

(١) تاريخ التربية ٧٩ - ٨٣ (٢) رسالة السياسة لابن سينا ١٤

(٣) رسالة السياسة لابن سينا ١٣

وراعي الفارابي هذا الاستعداد أيضاً في قوله : « من المتعلمين ألو طبائع رديئة ، يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها في الشرور ، فينبغي للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلمهم شيئاً من العلوم التي إذا عرفوها استعملوها فيها لا يحب ... و منهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم و براعتهم فينبغي أن يخthem على ما هو أعود عليهم . و منهم ذوو الأخلاق الطاهرة والطائفة الجيدة ، فيجب ألا يدخل المعلم عنهم شيئاً مما عنده من العلوم »^(١) . ثم أشار الغزالى إلى قدرة المتعلم العقلية بقوله : « من آداب المتعلم أن يبدأ بالأئم وألا يخوض في فن حتى يستوفى ما قبله .

وذكر من آداب المعلم أن يقتصر على قدر فهم المتعلم و يتدرج به ، وقال إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له معلمه أن من وراء هذا تدقيقاً وهو يدخله عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى^(٢) .

٢ - على أن هذه الأطوار التي ذكرها ابن خلدون و ساقوه هي نفسها أطوار التعليم في هذا العصر ، فالمدارس تتدرج من ابتدائية إلى ثانوية إلى عالية ، وهذا هو النظام الطبيعي الذي تحتمه مراعاة النمو الفكري .

ثم إن التدرج في المرحلة الواحدة يتفق مع التربية الحديثة في انتقادها من السهل إلى الصعب ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن المعروف المشاهدة إلى المستنبط بالنظر والدليل .

فثلا يرى (كونيوس) صاحب الطريقة الطبيعية في التعليم أن الطبيعة

(١) رسالة السياسة للفارابي ٢٩

(٢) إحياء علوم الدين ٤٣ / ١ - ٥٢

تبدأ أعمالها بجملة ثم تكملها وتفصلها وتتمم أجزاءها ، والصناع يترسمونها ،
فيدرجون من الكل إلى الجزء الواضح ، ثم إلى الخافي ، وكذلك يجب
أن يسير المعلم ^(١) .

ويختتم بستالوتنزى التدرج من السهل إلى الصعب ^(٢) .

ولقد ذهب بعض المربين المحدثين إلى تقسيم التلاميذ طوائف يتألف
أفراد كل طائفة في درجة تفكيرهم أو أن تدرس كل طائفة من العلوم
ما يحاجسها .

٣ - وابن خلدون في نصحه للمعلمين أن يستعينوا بالأمثلة الحسية
يتفق مع علماء التربية وعلماء النفس في أن الحواس أبواب العلم ، وأن
المعقولات كلها تتشعب من المحسوسات والمدركات الحسية ، وأن الطفل في
نشأته الأولى يندفع بغيرزة المعرفة والاستطلاع إلى تحسس كل شيء ،
فالحسوس هي وسائطه إلى المعرفة ، وهي عون له على الحفظ والفهم وسرعة
الذكر وسهولة التطبيق ، وقد حض إخوان الصفا على التدرج في التعليم
من المحسوس إلى المعقّول ، قالوا : « ينبغي لمن يريد النظر في مبادئ
الموجودات ليعرفها على حقيقتها أن يقدم أولاً النظر في مبادئ الأمور
الحسوسية ، ليروض بها عقله ، ويقوى على النظر في مبادئ الأمور المعقولة ،
لأن معرفة الأمور الحسوسية أقرب من فهم المبتدئين ، وأسهل على المتعلمين .
وهم قد طبقوا ذلك في رسائلهم ، فأكثروا من الأمثل والتشبيهات ، للتوضيح
والإفهام وتشييت المعلومات .

(١) تاريخ التربية ٢٦١ (٢) تاريخ التربية ٣٠٨

ويقول بستان التزى : « إن المعان الواضحة لا تصل إلى عقول التلاميذ إلا عن طريق الحواس » .

ثُم إن الوسائل الحية تربى الحواس أيضاً، لأن العضو يحسن ما مرّن عليه
٤ - وإذا كان ابن خلدون قد قرَّع المعلمين في عهده؛ بجهلهم طبائع
الأطفال وُقدِّرُهم العقلية فقد أشبهه روسو في حملته على المعلمين الذين رأوا
أن العلم لا يجده مالم يكن صعباً على المتعلم ثقيلاً على نفسه . وقال في مقدمة
كتابه إميل : « إن كثيراً من المربين الحازمين ليخطئون في موقع التربية
الصحيحة ، إذ يأخذون الأطفال بما يحتاج الرجال إلى معرفته ، غافلين عما
 تستطيع عقول الأحداث فهمه وإدراكه ، وإنهم ليخطئون كذلك حين
 يتطلبون في جسوم الأطفال عقول الرجال ، ولا يفكرون في حقيقة
 الطفل قبل أن يصير رجلاً »^(١) .

تعليم اللغة

يقول إن لغة الناس في عصره نامية عن قواعد العربية وأوضاعها ،
خارجية عن حدودها ، مغيرة لصحيحها . ويرى أن اللغة ملكة ، فمن الميسور
تعلّمها وإجادتها .

والطريق إلى ذلك :

١ - أن يبدأ المتعلم باللغة الفصحى ، لينطبع عليها لسانه وفكره ،
فلا يُحِرِّف ولا يُصْحِّف ولا يلحن . وإنك لتجد سكان الأمصار أشد
إغراقاً في اللحن من سكان البوادي ، ويشتد الإغراق ما بعد المصر عن

البادية . ذلك بأن أهل الأمصار لقنوا أول الأمر لغة ملحوظة ، معايرة لقواعد العربية ، منافية لملكتها ، فاعوجت ألسنتهم ، وفسدت لغتهم .

٢ - ولن يجده المعلمون تعلم النحو وحده كما يتوهם النحاة والمعلمون ، فيعجلون بتعليم الأحداث قواعد النحو ، ويحسبون أنها الوسيلة إلى صحة العبارة . وهم مخطئون ، لأن اللغة الفصحى لا تدرك إلا بمخالطة العرب الفصحاء ، واستماع كلامهم ، والدرية على التحدث بأساليبهم ؛ لأن اللغة مملكة ، والملكات لا تكتسب إلا بالتكلر والارتياض والمران ، فلقد كان العربي يحاكي أهله في نطقهم وتعييرهم كما يحاكي الطفل أهله في النطق بالمفردات ثم بالتراكيب ، وبتكرار ذلك يحصل على مملكة اللغة .

ثم يقول : « وهذا هو معنى ما تقوله العامة : إن اللغة للعرب بالطبع أوى بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم »^(١) .

٣ - أن يحفظ من القرآن والحديث وما خلف العرب من شعر ونشر قدرآ يقوم لسانه ويكتبه الملكة ، حتى يصير لكترة حفظه كأنه قد نشأ فيه .

٤ - أن يأخذ نفسه بالتعيير عما يريد ، على أنماط الأساليب العربية ، لأنه كلما أكثر من الحفظ والاستعمال كثُر جيد كلامه ، وجاد كثيره .

٥ - ثم لا بد له مع ذلك كله من سلامة الطبع ، وفهم منازع العرب وأساليبهم ، وطرق تراكيبيهم . ولا بد له من ذوق راق يميز جيد الكلام من رديئه ، وبلغه من فاتره وبارده .

٦ - وهو يشترط في تعلم النحو أن يُضْحَب بتطبيقه، لأن تعلمه من غير تطبيق عبث، وشتان بين الملكة اللغوية والصناعة اللغوية . فعلوم اللغة (علوم بـ*كيفية*) وليس (نفس *الكيفية* فليست نفس الملكة) وقد تستغنى الملكة عن علوم اللغة . ويمثل لذلك بمن يعرف صناعة يدوية معرفة نظرية لكنه لا يجدها عملاً « ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحوة ، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل كتابة سطرين لأخيه أو ذي مودة ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من مقصوده أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجده تأليف الكلام لذلك ، والعبرة عن المقصود على أساليب اللسان العربي . ولذا نجد كثيراً من يحسن هذه الملكة ، ويجيد المنظوم والمشور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية »^(١) .

وقليل من الناس يجيد الصناعة والملكـة ، وهو يعزـو ذلك إلى أنـهم درسو اكتـاب سـيـبوـيـه « لأنـه لم يقتـصـر على قـوانـين الإـعـرـاب فـقـطـ ، بل مـلـأـ كتابـهـ منـ أمـثـالـ العـرـبـ وـشـواـهـدـ أـشـعـارـهـ وـعـبـاراتـهـ ، فـكـانـ فـيـهـ جـزـءـ صالحـ منـ تـعـلـيمـ هـذـهـ الـمـلـكـةـ »^(٢) .

ويقرر أنـ الـذـينـ يـدـرـسـونـ النـحـوـ مجـرـداـ منـ شـعـرـ العـرـبـ وـنـثـرـهـ وـيـحـصـلـونـ عـلـىـ الـعـلـمـ صـنـاعـةـ لـاـ مـلـكـةـ ، وهذاـ هوـ الـذـىـ حدـثـ فـيـ بـلـادـ الـمـغـرـبـ فـيـ عـصـرـهـ ، أماـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ فـغـيرـ ذـلـكـ »^(٣) .

(٢) المقدمة ٤٩٤

(١) المقدمة ٤٩٤

(٢) المقدمة ٤٩٥

تعليم :

هذا رأى بين الوجهة ميتفق والتربية الحديثة ، لأننا بالتقليد نتعلم اللغة صغاراً ونجدها ونفتئنُ فيها كباراً .

فالتقليد والمرن ، ورعاية الصحة في النطق وفي التركيب أسس ثابتة لتعلم اللغة . لهذا رأى فترینو زعيم التربية الأدبية في إيطاليا أن أنجح وسيلة لتعلم اللغة اللاتينية للأطفال أن يجعلها لغة الحادثة منذ الصغر ، يتفاهمون بها ، ويتحدون مع أساتذتهم ، على أنهُ يعني بتجوييد نطقهم ، وجودة إلقائهم ، وتمثيلهم للمعنى . وكان يتدرج بهم في مخفوظاتهم من السهل إلى الصعب ومن القطع القصار إلى الطوال ، على حسب تدرجهم في السن ^(١) .

ولما جاء لوثر نصيحة المعلم أن يعني بحمل الأطفال على جودة النطق وصحته ، بل آثر هذه العناية على عنایته بتدریس القواعد ^(٢) .

ولقد كانت عادة العرب ولاسيما الخلفاء أن يرسلوا أولادهم إلى البادية لتنشئهم صاحي الجسم والأخلاق والأسنة .

والتربية الحديثة تحرص على التطبيق غاية الحرص ، لأن دراسة قواعد اللغة والبلاغة لا تجدها مالم تقرن بتمرينات ، وتحرص أيضاً على أن تعلم القواعد التحوية والبلغوية في أساليب رائعة ، وعبارات متوعة .

تعليم الصناعة

يقرر أن الصناعة عمل جسمى فكري ، فتعلمهها من المباشرة أولى من

(٢) تاريخ التربية ٢٣٣

(١) تاريخ التربية ٢١٣

تعلما بالنظر ، ويقول إن هذه الملة تحدث عن تكرار الفعل مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته ^(١) .

ويرى أن الذى اكتسب مهارة فى صناعة قل أن يجيد أخرى ، ومثال ذلك الخياط ، فإنه إذا كان بارعا فى الخياطة لا يجيد التجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، والسبب أن الملائكة صفات للنفس لا تزدحم ، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملائكة ، فإذا تلونت النفس بالملائكة الأولى ضعف فيها الاستعداد لقبول ملكة أخرى .

ويقول إن هذا في العلوم أيضا ، فمن أجاد علمًا قل أن يجيد معه غيره ^(٢) .

تعليم :

رأيه في تعليم الصناعة موافق لعلماء التربية المحدثين في تدریسهم المواد التي تكسب المهارة ، وهم يقررون أن الأعضاء هي العامل الأول في هذه الدروس ، وأن الذهن في محل الثاني ، ويرون أن الحواس وأعصاب الحركة هي العاد الأول ، ويقولون إن الانفعال بها ينتج حركة عضلية لا تفكيرا ، ويعتقدون أن الطريق إلى تعلم الصناعة وكسب مهارة إنما هو التوجّه إلى عناصر العمل والتدريب عليه دربة صحيحة .

أما حكمه بتغذر إجادة صناعتين أو علمين معاً فإنه موضع نظر . وسنعرض له بعد قليل .

نظم التعليم

(١) كتاب واحد

يقول : لا ينبعى أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعلم منه بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعليم ، ولا يخلط مسائل الكتاب بغیرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ، لأن المتعلم إذا نال قدرًا من العلم نشط في طلب المزيد ، حتى يستولى على غايته ، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال ، وانطماس فكره ، وينس من التحصيل وهجر العلم والتعليم ^(١).

تعليق

هذا رأى لا نقر علامتنا عليه ، إلا إذا كان غرضه أن ينجي باللّوم على ما رأه في معلم زمانه من إعنة المتعلمين باستيعاب كتب عددة في العلم الواحد ، مع اختلاف الآراء وبيان المصطلحات ، لأن هذا مع اليادين إعجاز وإملاك . وقد ذكر في موضع آخر أن متعلم الفقه على المذهب المالكي كان يقرأ كتاب المدونة وما كتب عليها من الشرح الفقهي ، مثل كتاب ابن يونس والخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على

العتيدة ، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية ، وطرق المتأخرین عنهم والإحاطة بذلك كله ، وحيثند يسلم له منصب الفتيا ، وهى كلاما متكررة ، والمعنى واحد ، وال المتعلّم مطالب باستحضار جميعها ، وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضى في واحد منها ^(١) . ثم يمثل لطريقة تعلم اللغة بأن المتعلّم يطالّ بكتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه ، وطرق البصريين والمتأخرین مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك ^(٢) . إذا كان الاكتفاء بكتاب واحد في كل علم طريقة صحيحة مع المبتدئين فإن تعدد المراجع مع السكار خير عون لهم على الفهم والتعمق والموازنة والبصر بنواحي الموضوع .

(٢) علم واحد

تأثير ابن خلدون بالزنوجي والغزالى في تقرير علم واحد يدرسه التلميذ حتى ينتهى ^(٣) ، فيشرع يدرس غيره ، فقال ، ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ألا يخلط على المتعلّم علمين معا ، فإنه حيثند قل أن يظفر بوحدة منها ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منها إلى تفہم الآخر ، فيستغلقان ويستعصيان ، ويعود منها بالخيبة ^(٤) .

نعلم

هذا الرأى يحتم على المعلم أن يلتزم علمًا واحدًا لا يشذ عن حدوده ، مع أن العلوم تتداخل وتعاون .

ولقد يتعدّر تفہم موضوع في علم بغير استعانة بعلم آخر ، لأن كثیراً

(١) المقدمة ٤٧٠ (٢) المقدمة ٤٧٠ (٣) الإحياء ٤٦/١ (٤) المقدمة ٤٧٢

من الحقائق متصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً بحيث لا يمكن تدريس العلم منعزلاً . فنحن مثلاً لا نستطيع تدريس التاريخ منعزلاً عن الجغرافيا والاقتصاد والمجتمع ، ولا نستطيع دراسة الأدب مجرداً من البلاغة والقواعد والتاريخ والجغرافيا الخ ثم إن المعرف كلها وشجرتها بين غيرها صلات قوية سهل حفظها ورسخت في الذهن ، وأسرع إلى الذاكرة عند الحاجة . على أن العقل ينجز في تفسيره طريقاً خاصاً هو الرابط بين الحقائق المتاظرة ، وفصل العلوم بعضها عن بعض ، ودراسة كل منها منعزلاً عن غيره مخالفة للعقل في سيره الطبيعي .

ثم إن العلوم كلها فروع مشتبكة من دوحة المعرفة . عزلت لتسهيل الدراسة وحصر المتشابه المماثل في دائرة معينة ، والخروج بالتعلم من علم إلى آخر يسليه ويحدد نشاطه وقواه ، ويفسح مداركه وآفاقه ، ويحبب الدرس إليه .

على أن بعض المربين المحدثين رأى أن ترکز العلوم حول علم واحد ، مؤسسين رأيهم على نظرية هربارت الألماني في العقل ، فاتخذ بعضهم الجغرافيا أساساً ، وتخير بعضهم التاريخ محوراً ، وآخر الإنجليز أن تكون رواية روبيشن كروزو مداراً ، وأقام الأمر يكيمون التاريخ قاعدة ، وابتكر بعض المحدثين طريقة المشروع ، وما ذلك إلا لربط المعرف والتئشى مع العقل في إدراكه .

(٣) التوسيع والإجمال

١ - قسم ابن خلدون العلوم إلى قسمين : قسم طبيعي يهدى إلى الإنسان بفكره ، وقسم نقلى يأخذه عن وضعيه : الأول هو العلوم الحكمة الفاسفية

وهي التي يمكن أن يعرفها الإنسان من تلقاء نفسه ، ويهدى إليها بعدها ،
والثانية هو العلوم النقلية الوضعية المستندة إلى الشرع ، وليس للعقل مجال
فيها إلا أن يلحق الفروع بالأصول .

والعلوم الشرعية أصلها الكتاب والسنة ، وما يتعلّق بها من التفسير
والقراءات والأصول والكلام ، ولها علوم تساعده على فهمها هي علوم
اللسان من لغة ونحو وصرف وأدب وبيان ، وهذه هي العلوم الآلية ^(١) .

أما العلوم العقلية فهي المنطق والطبيعتيات والإلهيات والتعاليم (الهندسة
الارتماسية ، الموسيقى ، الهيئة) . ولكل من هذه العلوم فروع ، فـ
فروع الطبيعتيات الطب ، ومن فروع علم العدد الحساب والفرائض
والمعاملات . . . ^(٢) . والمنطق من العلوم العقلية كالنحو مثلاً من العلوم
النقلية وسيلة إلى صحة التفكير .

٢ - ورأى أن العلوم الغائية وهي العلوم المقصودة من شرعة
وفلسفة جديرة بالتوسيع وتفریع المسائل واستكشاف الأدلة ، لأن ذلك
يزيد طالبها تمسكاً ، ويوضح معانها المقصودة .

أما العلوم الآلية من لسانية ومنطق ، فهي وسائل إلى غيرها ، فلا ينبغي
التوسيع فيها ولا التفریع ، لأن الاتساع فيها يخرجها عن وظيفتها ، ويزاحم
العلوم المقصودة . ثم إنها طويلة وكثيرة الفروع والحصول على ملامة فيها
صعب ، فالتوسيع فيها أغو .

وهو ينذر بالذين بسطوا النحو والمنطق وأصول الفقه ، وضيّعوا العمر ،

وشعروا عقو لهم بما لا يعنهم . حتى صيروا العلوم الوسائل مقاصد ، وربما
تقع فيها أنظار لاحاجة إليها في العلوم المقصودة فهى نوع من اللغو ، وهى
أيضاً مضر بالمتعلمين ، لأن المتعلمين اهتمهم بالعلوم المقصودة أكثر من
اهتمامهم بوسائلها ، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فتى يظفرون
بالمقصود ؟ ^(١)

نعلبى

١ - تقسيم ابن خلدون للعلوم إلى عقلية ونقلية يشبه تقسيم الباقلاني
لها إلى علم ضرورة وعلم نظر واستدلال ^(٢)

٢ - ورأيه في الاكتفاء بالضروي من العلوم الوسائل جدير بأن
يقدر ويطاع ، لأن بعض الطلاب مازالوا يصرفون جهودهم في التوسع في
العلوم الوسائل ، ويتخرجون ورءوسهم مليئة بالفرضيات الخيالية في الفقه ،
والمحاكبات اللغوية في النحو ، والقضايا الملتوية في الأصول ، ثم هم أغنياء
في العلوم الوسائل يجيدون أصولها وفروعها ، ولكنهم فقراء في العلوم
الغاية ، فما أشبههم بنمن يريد نهرًا ليتهلل منه ، فيعدل عن الطريق القاصد إلى
طرق ملتوية دوارة ، فيضنه النصب ، ويحرقه العطش ، ثم يبلغ النهر وقد
كل ، فلا يكاد يرتوى حتى يهلك .

ليس من الحكمة أن يدرس الطالب النحو في الأشموني وحواشيه ،
والمغنى وأشباهه ، ولا من الرأى أن يدرس البلاغة في حواشى السعد
вшروح التلخيص وأضرابها من الكتب التي تصدت لدراسة البلاغة وهي
من البلاغة براء ، أساليب وأفكارا .

إن كثيراً من الطلاب في أشد الحاجة إلى رأى ابن خلدون، ليؤخذوا به،
فينفسح أمامهم مجال الدراسة للعلوم الأساسية المقصودة، فيتقنوها
وبيجدها.

٣ - وإن كان ابن خلدون قد ذهب إلى التوسيع في العلوم المقصودة،
والاكتفاء باليسير الضروري من العلوم الوسائل، فإنه نقد في شدة أولئك
الذين يختصرون الكتب، فيحذفون فصولاً ضرورية، ويضططون
العبارات ضغطاً، ويحملون الألفاظ أنقاًلاً من المعنى، فاصدرين تسهيل
الحفظ على المتعلمين فيما سموه (المتون) ^(١).

وهو موقف جداً في هذا الرأي، لأن الماسخين للكتب يجنون على
عقول الدارسين بالإخلال والإملال والإعنات، ويطغرون بالطالب
إلى درجة لم يتهدأ لها عقله بعد، وذلك بتعريفه غaiات العلم ومشكلاته وهو
لم يستعد لقبوها، لقصور عقله، وضعف مداركه، فهو في حاجة إلى ضرب
المثل، وعرض ما يلام قواه. ثم إن في هذا الضغط تليساً عليه؛ لأن
استخراج المعنى من الجمل المضغوطة عمل مضن شاق. على أنه يكلف أن
يستوعب المتون، وهذا إرهاق له.

وإن تأليف المتون وحفظها، والكلف بالاقتضاب والاختصار، وأخذ
المتعلمين بالدراسة على هذا الطراز جهل بالتربية، وتشويه لروعه العلم،
وإخلال بالعرض الحقائق.

ولقد قال عالم آخر اختصر كتابه ومسخه: لقد كان لكتابي يدان في قبرت
يداً، وساقان فقطعت ساقاً، وعينان ففقتا عيناً، وكان رجلاً فأرجعته
طفلًا، فعل الله بك مثل الذي فعلت به.

وإذا كنا نجأ بالشكوى من حال التعليم في مصر ، ونقول إن المدارس
لاتهينا العقول المفكرة ، ولا الآراء المدببة ، ولا الأذهان المتكررة ،
فقد يكون من أسباب ذلك أنها تعنى بالبحوث اختصرة ، والآراء المقتصبة
الميسّرة . وكلما هم أستاذ بالتوسيع والبساط تذكر أن لديه برنامجا يجب أن يتم ،
ومقررا يتطلب بذل الهمة ، فعدل عن بسط الرأى إلى ضغطه ، وأثر الكـ
على الكـيف .

إن دراسة العلوم للـكبار في مختصرات مبهمة لاتـشـحـذـهـنـا ، ولا تـرـهـفـ
عقلـا ، ولا تـغـرـسـ عـادـةـ الـبـحـثـ ، وقـصـارـاـهـاـ أـنـهاـ عـمـلـ آـلـيـ عـمـلـ .

(٤) اتصال مجالس التعليم

رأى ابن خلدون ألا يطيل المعلم على المتعلم في الفن الواحد بتفريق
المجالـسـ ، وقطعـ ماـ يـبـنـهـ ، لأنـ الفـصـلـ ذـرـيـعـةـ إـلـىـ النـسـيـانـ ، وقطعـ مـسـائـلـ
الـعـلـمـ ، وـالـمـلـكـاتـ تحـصـلـ بـتـتـابـعـ الـفـكـرـ وـتـكـرـارـهـ ، وإـذـاـ تـنـوـسـيـ الـفـعـلـ
تنـوـسـيـتـ الـمـلـكـةـ النـاشـيـةـ عـنـهـ .

ج) تعلـيـقـ

لـأـنـوـافـهـ عـلـىـ رـأـيـهـ ، لأنـ اـتـصـالـ بـمـجـالـسـ التـعـلـيمـ يـعـثـ الـكـسـلـ وـالـمـلـلـ ،
ويـطـيرـ بـالـفـشـاطـ وـالـأـنـتـبـاهـ كـلـ مـطـيرـ ، فيـجـهـ الـمـعـلـمـ نـفـسـهـ وـتـلـيـدـهـ لـيـسـ مـعـهـ .
وـكـيـفـ يـصـبـرـ الـمـعـلـمـ صـغـيـرـاـ أوـ كـبـيرـاـ عـلـىـ الـمـجـلـسـ الـمـتـصـلـ وـالـإـصـغـاءـ
الـمـتـوـالـ ؟

وـالـخـيـرـ مـاـ قـسـتـهـ الـمـدارـسـ مـنـ الـرـاحـةـ بـيـنـ الـدـرـسـ وـالـدـرـسـ ، وـالـرـاحـةـ
بـيـنـ الـأـسـبـوـعـ وـالـأـسـبـوـعـ ، وـالـإـجـازـةـ بـيـنـ الـعـامـ وـالـعـامـ .

(٥) الشدة والعقوبة

١ - ذهب ابن خلدون إلى أن معاملة التلاميذ بالشدة مضره بهم ، لأنها إرهاق للجسد ، وإفساد للخلق ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطأ به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث ، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخداعة ، وصارت له هذه عادة وخلقا . وفسدت معانى الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك . بل كسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الحميد وهكذا حصل لكل أمة وقعت في قبضة القهر ، ونال منها العسف .

٢ - على أن ابن خلدون لا يحضر العقوبة حظرا ، فقد نقل عن أبي محمد ابن أبي زيد أنه لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضرهم - إذا احتاجوا إليه - على ثلاثة أسواط شيئاً ، وقال إن من أحسن مذاهب التعاليم ما تقدم به الرشيد لعلم ولده الأمين « يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبها ، فصيير يدك عليه ميسوطة . وطاعتكم له واجبة ... وقومه ما استطعت بالقرب والملابنة ، فإن أباهمما فعيك بالشدة والغلظة »^(١).

وإجمال ذلك :

- ١ - القهر يحزن الصبي
- ٢ - يدعوه إلى الكسل وبغض بعض الطعام
- ٣ - يحمله على الخبث والخداع والكذب

٦ - يربيه على الحب والحنون
٧ - يقعد به عن كسب الفضائل

تعليق :

١ - تأثر ابن خلدون بآراء سابقيه من مربى العرب ، فابن سينا يرى أن حسم الداء خير من علاجه ، وأن المربى الحكيم هو الذى يبعد بالطفل عما يغريه بالخطأ ، فإذا أخطأ فليراوح في عقوبته بين الترغيب والترهيب ، والإيناس والإيحاش ، والإعراض والإقبال ، والحمد مرأة والتوبية أخرى ، فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يحجم عنها . وليس أول الضرب قليلاً موجعاً ، فإن الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها ، واشتد خوفه منها ، وإن كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحصل به .

والغزالى ينصح المعلمين ألا يتشددوا على تلاميذهم ، وعليهم أن يشفقوا عليهم ، وبجر لهم مجرى بينهم . وعليهم أن يزجرونهم عن سوء الأخلاق بطريق التعریض ما أمكن ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبية ، فإن التصریح بهتك حجاب الهيئة ، ويورث المرأة على المخالفه ، ويهدى الحرص على الإصرار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم ، وهو مرشد كل معلم : « لو منع الناس عن فت البحر لفتوه ، وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء » .^(١)

وإلى حضر الشدة ذهب العبدوى أيضاً ، وحذر المعلمين ما يفعله بعض المعاصرین له من إعداد عصا لضرب الصبيان ، لأن هذا لا يليق بمن ينتسب إلى حلة الكتاب العزيز ، على أن الصبيان مختلفون ، فرب صبي يكفيه

عبوسة وجه معلمه ، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ ، وآخر لا ينجر إلا بالضرب والإهانة .

فإذا اضطر المعلم إلى الضرب فليكن غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئاً ، ولتكن أدلة الضرب رقيقة^(١) .

٢ - دعا المربون المسلمين إلى حظر العقوبة القاسية ، ووافقهم المربون الغربيون فيما بعد . وهم جميعاً محقون ، لأن العلم يجب أن يحب إلى الطفل بالتشويق والإغراء ، وأن تقويم الأخلاق وسلالته القدوة والنصوح والتهذيب . والحق إن الشدة وعبوسة الوجه تبغض العلم والمعلم إلى المتعلّم ، وتغرس فيه رذائل كثيرة ، والشدة لا تخلق أحرازاً ، ثم إنها تذهب بعزّة النفس . على أنها وازع بغيض مؤقت ، لأنها لا تعتمد على الوجдан والضمير والتميز بين الحسن والقبيح . وكم خاتف من العقوبة يقدم على الجريمة إذا أمن العيون . ثم هي تنزع من جو الطفولة أطیاف البهجة والمسرة ، فتبتسر حياتهم ، وتکفر أیامهم ، وتذبل نضارتهم .

وابن خلدون محق في أن هذه الآثار لا تقف عند الطفولة أو الشباب بل تتعداها إلى الرجولة .

ولا نستطيع أن نحضر العقوبة دائماً ، لأن التجارب ثبتت الحاجة إليها أحياناً ، ولقد نجد بعض التلاميذ متکاسبين أو مشاكسين ما دام أستاذهم لين المعاملة ، هين المؤاخذة ، فإذا ما آنسوا منه الحزم والصلابة تسابقوا إلى الطاعة والجد .

٣ - وإذا كان ابن خلدون ومن سبقه من مربى العرب قد حظروا

العقوبة القاسية ، وأباحوا العقوبة الهينة إذا ما دعت إليها الحاجة ، فإنهم بذلك عمليون واقعيون . أما كوشيلان المربى الرومان فقد جنح إلى الخيال في قوله : أنا لا أرضى بالعقوبات البدنية ، ولا أنسح باستخدامها وسيلة من وسائل التعليم في المدارس ، على الرغم من أنها عادة موروثة ، وعلى الرغم من أن شيخ الفلاسفة الرواقيين (كرسيبيوس) لا يرى فيها بأسا ، فإنها عقوبات العبيد ، وفيها للأطفال مذلة ومهانة . وإذا كان الطفل خسيس الطماع لا يؤثر فيه التوبخ ، ولا يردعه التأنيب ، فإن العقوبة البدنية لا تزيد إلا تبلداً وجوداً ، على أن الطفل إذا وجد بجانبه من يصره بالواجب ، ويستميله دائماً إلى العمل لم تسكن به حاجة إلى العقوبات القاسية ^(١) .

(٧) التعليم صناعة

يرى أن التعليم صناعة لا طبيعة ، لأن الحذر في العلم إنما يكون بحصول ملكة محيطة بميادنه وقواعد واستنباط فروعه من أصوله وهذه الملكة غير الفهم والوعي ، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركة بين البادئين في هذا الفن والشادين فيه ، لهذا كان لابد أن يقوم بالتعليم أصحاب ملكات فيه .

ثم إن تعليم العلم صناعة أيضاً لأن المصطلحات مختلفة ، فلم يكل إمام من المشهورين اصطلاح في العلم يختص به ، شأن الصناعات كلها ، وهذا الاصطلاح ليس من العلم ، وإنما كان واحداً عند الجميع ^(٢) .

تعليمي

ذهب إلى أن التعليم صناعة لا طبيعة، والحق إنه طبيعة أيضاً ، لأن الإنسان مفطور على نقل خواطره إلى غيره ، فيفهم ويتفهم ، ويرى ويعلم ، وينشر الثقافة ، ولا يستطيع عالم أن يكتم علمه ، وهل تستطيع الوردة أن تخس شذاها؟

وهل يقدر الطفل أن يقمع ميله إلى الحركة ونزعه إلى الخل والتركيب والاستطلاع؟

ومن البديهي أن نزعة العالم إلى أن يُعلَّم تقوى تبعاً لكثرات الجماعة، وعظم حضارتها ، وقوة الصلات بينها . . . وإذا فلم يتم مطبوع ومصنوع ، ولا يعني أحد الوصفين عن الآخر .

(٧) التعليم في الأمصار

عرض في هذا الفصل أساليب البلاد العربية في التعليم ، وهي المغرب والأندلس وتونس والشرق .

ومن عرضه نتبين أنها كلها تتفق في البدء بالقرآن الكريم ، لكن بلاد المغرب تأخذ الصياغ بالقرآن وبرسمه ، وتقف عند ذلك ، لا تتعدها إلى حديث أو فقه أو شعر ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع ، فينقطع في الغالب عن العلم .

أما الأندلس فتضييف إلى تعلم القرآن رواية الشعر والثر ، وتأخذ أحداها بقوائين اللغة ومتناها وبتجوييد الخط . وتونس قريبة الشبه بهم . وأما أهل المشرق فإنهم يزيدون إلى القرآن علوماً ، عدا الخط فإن له

مدارس المخصوصة ، والعلم في المشرق مزدهر ، والصناعة راقية ، حتى إن
الحالـة من المغرب يظـنون أن عقوـلـهم أقلـ من عقولـ المـشارـقة ، ويـتشـيـعون
لـذـكـ وـيـولـعـونـ بـهـ^(١) .

ويرى أن اقتصار أهل المغرب على القرآن قعد بهم عن إجادـةـ العـلـومـ
الـلـسـانـيـةـ ، وـالـبـرـاعـةـ فـيـ الـأـدـبـ ، وـيـعـلـلـ لـذـكـ بـقـوـلـهـ : « إنـ القرآنـ لاـ تـنـشـأـ
عـنـهـ فـيـ الـغـالـبـ مـلـكـةـ »؛ لأنـ البـشـرـ مـصـرـوـفـونـ عـنـ الإـيـانـ بـمـثـلـهـ ، فـهـمـ مـصـرـوـفـونـ
لـذـكـ عـنـ الـاسـتـعـالـ عـلـىـ أـسـالـيـبـ وـالـاحـتـذـاءـ بـهـ ، وـلـيـسـ لـهـمـ مـلـكـةـ فـيـ غـيرـ
أـسـالـيـبـ ، فـلـاـ يـحـصـلـ لـصـاحـبـهـ مـلـكـةـ فـيـ الـلـسـانـ الـعـرـبـ ، وـحـظـهـ الـجـمـودـ فـيـ
الـعـبـارـاتـ ، وـقـلـةـ التـصـرـفـ فـيـ الـكـلـامـ^(٢) .

ثم يـبـيـنـ أـهـلـ إـفـرـيـقـيـةـ – تـونـسـ – أـخـفـ مـنـ أـهـلـ المـغـرـبـ فـيـ هـذـاـ
الـضـعـفـ ، لأنـ النـظـامـ مـخـتـلـفـ ، إـذـ أـنـهـمـ يـضـيفـونـ إـلـىـ الـقـرـآنـ بـعـضـ الـعـلـومـ ،
فـيـقـتـدـرـونـ عـلـىـ بـعـضـ التـصـرـفـ وـمـحـاذـةـ المـثـلـ بـالـمـثـلـ . عـلـىـ أـنـ مـلـكـتـهـمـ قـاـصـرـةـ
أـيـضـاـ ، إـذـ أـنـ جـلـ اـعـتـادـهـمـ عـلـىـ الـقـرـآنـ ، وـأـكـثـرـ مـحـفـوظـهـمـ عـلـومـ ضـعـيفـةـ
الـأـسـالـيـبـ ، رـكـيـكـةـ الـمـعـانـىـ . ثـمـ إـنـ طـالـبـ الـعـلـمـ صـمـوـتـ فـيـ جـلـسـ الـعـلـمـ لـاـ يـتـكـلـمـ
وـلـاـ يـسـأـلـ وـلـاـ يـعـارـضـ ، مـعـنـىـ بـالـحـفـظـ جـداـ ، هـذـاـ لـاـ يـكـتـسـبـ مـنـ تـعـلـيمـهـ
مـلـكـةـ جـيـدةـ قـوـيـةـ ، وـلـاـ رـأـيـاـ سـدـيـدـاـ مـسـتـقـلـاـ يـنـافـحـ بـهـ عـنـ وـجـهـهـ إـذـاـ عـلـمـ أوـ
جـادـلـ^(٣) ، وـمـاـ أـتـاهـمـ الـقـصـورـ إـلـاـ مـنـ سـوـءـ طـرـيـقـةـ الـتـعـلـيمـ ، وـلـيـسـ عـقـوـلـهـ
مـتـهـمـةـ لـأـنـهـمـ أـسـرـعـ مـنـ غـيرـهـمـ حـفـظـاـ وـاستـيـعـابـاـ . عـلـىـ أـنـ خـطـلـ طـرـيـقـةـ الـتـعـلـيمـ

(١) المقدمة ٤٧٦ ٦٣٦

(٢) المقدمة ٤٧٦

(٣) المقدمة ٤٧٦ ٦٤٩٦

أطّال عهده ، فأقصى مدة له في المغرب ست عشرة سنة ، وهي في تونس
خمس سنوات ^(١).

ويرى أن الأندلسيين أسلم من المغاربة عبارة ، وأسمى أدبا ، وأرصن
أساليب ، لأنهم يروون الشعر الجيد والنشر البليغ ، ويدرسون اللغة من
الصغر ^(٢) ولكنهم قصروا في العلوم والفلسفة والفقه لتناقض عمر انهم بهجات
الأعداء ^(٣) ، ولبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، وهي أصل العلوم
وأساسها ، فكانوا لذلك أهل أدب ^(٤)

تعليم :

١ - الحق إن القرآن وحده لا يكفي ، ومن التجوز أن نسمى حافظه
متعملا ، بل لا بد من أن تصحبه ، أو تتبّعه أو تسبقه علوم أخرى ، ولست
أعني بهذا أن الاكتفاء به كالتجرد من التعليم أصلا ، لأن حفظ القرآن في
مصر - وكثير منهم لا يعرف غيره ، وأكثراهم لا يفهم القرآن إلا فيما
سطحيا - أحل حديثا وأسلم نطقا وأقوى عبارة وأقدر على فهم اللغة من
لم يحفظوه ، ولم يجلسوا إلى معلم . ولقد يتأثر بعضهم بأساليب القرآن ،
فيحاول التحدث بلسان عربي وعبارة منمقة .

٢ - ولست أواافقه على أن حفظ القرآن الكريم لا تنشأ عنه ملامة ،
لأن الناس مصروفون عن الإتيان بمثله ، وعن محاكاته ، وليس هنا مجال
تفصيل مذهب الإعجاز الذاتي ، أو مذهب الصرف الذي ذهب إليه النظام ،
 وإنما أرى أن كثيراً من الأدباء الإسلاميين تأثروا به في العبارة والخيال

٤٧٦ (٢) المقدمة

٣٦٢ (١) المقدمة

٤٧٦ (٤) المقدمة

٣٦٢ (٣) المقدمة

واقتبسوا منه المعانى ، وقد ألف أبو العلام كتابه الفصول والغايات على نمط القرآن الكريم ، ومن الطبيعي أن اللحاق بأسلوب القرآن محال ، ولكن المحاكاة مستطاعة .

(٨) القرآن الكريم

يقول إن تعلم القرآن شعار ديني ، لأنه يتنزل على قلب الطفل الغض بالإيمان والعقائد فيرسخ يقينه ، ويقوى دينه ، وتعلم الصغر أبى وأثبت من تعلم الكبر .

ثم يعرض رأى القاضى أبي بكر بن العربي فيقول إنه قدم تعلم اللغة والشعر على سائر العلوم كذهب الاندلسيين ، لأن الشعر ديوان العرب ، ولأن اللسان العربى اعوج وانحرف ، وحاجتنا إلى تقويمه تضطرنا إلى تقديمها ، ثم ينتقل التلميذ إلى الحساب ثم القرآن الكريم ، وحينئذ يتيسر له فهمه « ويَا غَفَلَةُ أَهْلَ بَلَادِنَا إِنْ يَؤْخُذُ الصَّبِيُّ بِكِتَابِ اللَّهِ فِي أُولَأِ أَمْرِهِ ، يَقْرَأُ مَا لَا يَفْهَمُ ، وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِ أَهْمُلُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُ فِي أَصْوَلِ الدِّينِ ، ثُمَّ أَصْوَلِ الْفَقْهِ ، ثُمَّ أَصْوَلِ الْجَدْلِ ، ثُمَّ الْحَدِيثَ وَعِلْمَهُ . وَعَقْبَ ابْنِ خَلْدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ مَذْهَبُ حَسَنٍ ، لَكِنَّ الْعَادَاتَ لَا تَسْاعِدُ عَلَيْهِ ، فَقَدْ أَلْفَ النَّاسَ تَقْدِيمَ الْقُرْآنِ اسْتَدْرَارًا لِلْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالثَّوَابِ ، وَخَوْفًا مِنْ طَرْوَهُ حَدَثَ عَلَى الصَّبِيِّ يَمْنَعُهُ مِنْ حَفْظِ الْقُرْآنِ ، وَثُقَّةً بِأَنَّ الصَّبِيَّ فِي صَغْرِهِ أَطْوَعُ لِلْأَمْرِ ، فَإِذَا مَا شَبَّ فَقَدْ يَسْتَعْصِي وَيَرْغُبُ عَنْ حَفْظِ كِتَابِ اللَّهِ ، وَلَوْ حَصَلَ إِلَيْهِنَا بِاسْتِمْرَارِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَقَبُولِهِ التَّعْلِيمَ لَكَانَ هَذَا الْمَذْهَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي أَوْلَى مَا أَخْذَ بِهِ أَهْلَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ ،^(١)

تعليق

يظهر أن ابن خلدون مبال إلى رأى ابن العربي ، لأن ردوده واهنة ، ذلك بأن العادة تغير ، ولو لم تخضع عاداتنا للتغيير والترقى لظللنا في جمود أو تقهقر ، ولو لم يغير المربون عادات معاصريهم ما بلغت التربية وعلم النفس هذا الأوج . والعجيب من ابن خلدون العالم الاجتماعى أن يتخوف مخالفة العادة .

ثم إن التبرك لا ينقطع ما دام القرآن يحفظ ويدرس ، وكل ما حدث أنه نقل من صغار لا يفهمونه إلى كبار يحفظونه ويفهمونه ، ولعل هذا أكثر استدراراً للخير والبركة والثواب ، فلقد نزل القرآن ليفهم أولًا لا ليحفظ .

ثم إن الخوف من طرده آفة على الصبي أو من تمرده حجة واهية ، بل هي تعلة يلجأ إليها من يعتصم بغير معتصم . وأرى أن ابن العربي محق ، ولو استطعنا أن ننفذ ما أشار به لضمنا حفظ القرآن وفهمه ، ولضمننا لغة قوّة وروعة واحتذاء بأساليبه . وإن لم نستطع تحقيق رأى ابن العربي فلتتوسط بين الرأيين ، فنأخذ الأحداث بحفظه مشروحاً على أقدار عقوبهم .

(٩) الرحلة في طلب العلم

دعا إلى الرحلة في طلب العلم ، لأن البشر يتلقون علومهم وينكسبون أخلاقهم تارة علماً وتعلماً ، وتارة محاكاً وتلقينا . ولا شك أن التلقين وال المباشرة أجدى ، وعلى قدر كثرة الأساتذة تحصل المisksات وترسخ ، ثم

أن لقاء الأستاذة كفيل يادرالك مصطلحاتهم ومعرفة طرقيهم ، ووسيلة إلى تصحيح المعارف^(١) .

تعليق :

١ - كانت الرحلة في طلب العلم سنة شائعة بين المسلمين ، فكان كثير من طلاب العلوم يجوبون ربوع العالم ، ويلقون شيوخهم ، مستهينين بالصعب من متاعب ونفقات واغتراب وأخطار .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا . فثلا أبو الخطاب عمر بن الحسن الأندلسى اشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس ، ولقى بها علماءها ومشايخها ، ثم رحل عنها إلى بر العدوة ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها ، ثم رحل إلى إفريقية ومصر والشام والعراق ، وسمع ببغداد وبواسط ، ودخل عراق العجم وخراسان وما وآله ، كل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئمته وأخذ عنهم^(٢) .

وأبو عوانة يعقوب بن إسحق النيسابورى طوف بالشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والهزار والجزيرة واليمن وأصبان والرى وفارس ، في طلب الحديث^(٣) .

ومحمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوى كان رحالة يجوب بلاد الأندلس في طلب الحديث^(٤) .

ولقد ذكر ابن خلkan أن سليمان الفلسطينى لقى في الجزيرة والهزار

(١) المقدمة ٤٧٨ (٢) وفيات الأعيان ٤٨٢/١

(٣) وفيات الأعيان ٣٠٨/٢ (٤) فوات الوفيات ٢٢٦/٢

واليمين ومصر ألف أستاذ ، في اثنين وعشرين سنة ، وأن تاج الإسلام
أبا سعد ورد ينابيع العلم في شتى الديار ، فبلغ أستاذته أربعة آلاف .

وقد عثر الخطيب التبريزى على مجلدات من كتاب التهذيب للأزهرى ،
بعضها في حاجة إلى الضبط ، ففهتم أبا العلاء المعرى حاملاً كتابه على ظهره ،
عاجزاً عن استئجار راحلة ، قاطعاً في سفرته من تبريز إلى المعرفة نحو ألف
كيلومتر ، لكنه لما بلغ أبا العلاء وجد العرق قد نشع من الحقيقة إلى الورق
فكاد يتلفه كله .

ومازال الطلاب إلى الآن يغادرون أوطنهم في طلب العلم ، لأن كثرة
الأساتذة ، وتنوع ثقافتهم ، يكفل للمتعلم ثقافة متنوعة .

٢ - على أن ابن خلدون أغفل آثار الرحلات الأخرى ، من تأثير
بأخلاق الأساتذة ، وبالبيئة الجديدة ، ومن الاطلاع على عادات نافعة ونظم
متنوعة ، ونقل الصالح منها إلى الوطن ، حيث يغرسه الطالب في بلاده بنتها
سريعاً، طيب الآثار والثار .

(١٠) المدرسون

١ - يقول إن العلماء أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها ، لأنهم
اعتادوا النظر الفكري ، وتجريد الصور الذهنية من المحسات ، وقياس
الأمور على أشباهها ونظائرها ، ولأن آرائهم لا يتحقق أكثرها ، وإنما
تحقيق فروع منها ، وهي لا تتحقق إلا بعد الفراغ من البحث والنظر
والفرض والجدل .

أما السياسة فعتمدة على الحوادث الواقعية ، ولا يحسن فيها القياس ؛ لأن

أحوال العمران وإن اشتبهت لا ينقاس بعضها على بعض ، فربما اختلفت في أمور أخرى . لهذا إذا تولى أزمنتها العلماء أفرغوها في قوالب أنظارهم ، وأنواع استدلالهم ، فعمموا الأحكام ، وقادوا الأشياه ، فيقعون في الغلط ولا يؤمّن عليهم الزلل^(١)

٢ - ويرى أنهم في الأعم الأغلب لا يقتنون ثروة ، ويسبّهم في ذلك العلماء والفقها . وأصحاب الفتاوى والقضاء والإمامية والخطابة ، ودليله أن قيم الأشياء تختلف باختلاف الحاجة إليها ، وإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران كانت قيمتها أعظم من الكمالية ، وأهل العلم والدين لا يضطر العامة إليهم ، وإنما يحتاج إليهم الخواص ، وهم أيضاً أصحاب ثقافة وبصاعة شريفة ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منهم حظاً يستدرُون به الرزق ، بل إن أوقاتهم لا تفرغ لذلك ، لأنهم مشغولون بالقراءة والتأليف^(٢) .

٣ - والعلماء جبناء ، لأنهم أخذوا بالتأديب والتعليم منذ الصغر ، وهذا ينقص من بأسهم كثيراً^(٣) .

تعليق :

١ - يظهر أن أكثر العلماء في عصره لم تكن لهم طاقة بالسياسة ولادعيمها ، لأن التفكير عندهم أقوى من العزم ، أما رجال السياسة وال Herb فيجب أن تغلب عزيمتهم تفكيرهم .

كانوا تأمليين ، يؤثرون الأخيلة والفرض على الحقائق ، ويعنون بالآراء النظرية أكثر من عناييهم بتحقيقها ، ويقدمون التفلاسف على التجربة

(١) المقدمة ١٠٦

(٢) المقدمة ٣٣٠

(٣) المقدمة ٤٧٩

والملاحظة ، وكانوا يهربون من تحمل التبعات ، ويرغبون عن المغامرة والصراع ، فهم أجرد بالأعمال الهدامة والبحث العلمي والتفكير ، ولا يصلحون للأعمال التي تلائم الرجل النزوعي العملي ، كالتجارة والصناعة وال الحرب والسياسة .

أما في هذا العصر فإن العلماء والمعلمين قد يرون على أن يحكموا ويسيطروا ويزاولوا أي شأن عمل ، لأن ثقافتهم ودراساتهم وتجاربهم غير ما كان عليه الحال في عصر ابن خلدون .

ومن عجب أن يعتقد ابن خلدون هذا الرأي ، وقد دعا أفلاطون إلى تقضيه ، إذ قصر الحكم في جمهوريته على الفلاسفة .

٢ - وقد حاول أن يستكنه السبب في فقر العلماء فوفقاً كثيراً ، ولا سيما إذا أضفنا إلى ما ذكر أنهم لا يمارسون التجارة والصناعة في الغالب وهما ينبع ثروة ، وأنهم لا يرتضون ربحاً أو مالاً من طريق غير مشروع ، وأن هذا الحكم يصدق في عصر الجمالة كعصر ابن خلدون .

٣ - أما دعواه أنهم جبناء فقد سبق الرد عليها .

٤ - ولا شك أنه تأثر بحال المعلمين في عصره ، فهو يقول « التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشرة بعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكن منقطع الجذم » ، وإن التعليم في صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، كان أهل الأنساب والعصبية هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم . . . فلما استقر الإسلام اشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، وشاخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم ،

واختص انتقامه بالمستضعفين ، وصار متاحله محقرآ عند أهل العصبية ،^(١)
يتضح من هذا أن المتعلمين كانوا ذوى مكانة إلى الدولة العباسية ، وأنهم
كانوا من ذوى العصبية والجاه ، وليس أدل على ذلك من تبجيل الخلفاء
والأمراء لهم . ثم لما ضفت الأمة وتفشى فيها الجهل هبطت أقدار
المعلمين ، وهل ينتظر أن تروج المصايب بين العمى الذين لا يصررون ؟
وقد سبق الجاحظ إلى الدفاع عن المعلمين ، والرد على اتهام بعضهم
بالحق ، فذكر أن المعلمين على ضر بين : منهم رجال ارتفعوا عن تعلم
أولاد العامة إلى تعلم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعلم هؤلاء
إلى تعلم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم
أن مثل علي بن حمزة السكاني ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب وأشباه
هؤلاء يقال لهم حق ؟ لا يجوز هذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التي
دونهم – يعني معلمى أولاد الخاصة – فإن ذهبوا إلى معلمى كتابى القرى ،
فكيف يقول هذا القول في هؤلاء ، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل
كميت بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب الخ على أن لكل قوم حاشية وسفلة ،
وليس المعلمون في ذلك إلا كغيرهم^(٢)

آثار العِلُومَ وَ غَايَا تَحَا

درس العلوم دراسة مفصلة من حيث نشأتها وتطور التأليف فيها ،
وتهمنا من هذه الدراسة غایاتها :

- ١ - العلوم اللسانية أربعة : هي اللغة والنحو والبيان والأدب ، والغاية منها فهم الكتاب والسنة ، وصحة القراءة والكتابة والحديث ^(١) .
- ٢ - وثمرة علم البيان أن يساعد على فهم إعجاز القرآن ، لأن العرب كانوا أصحاب ملكات وأذواق في اللغة لقِنوا بها إعجازه ، أما المستعربون فإنهم في حاجة إلى مقاييس يعرفون بها الإعجاز ، ويزنون أقداره ^(٢) .
- ٣ - ويقول إن القرآن يأخذ بدارسيه إلى ذروة البلاغة في الإنتاج الأدبي ، ويستدل على ذلك بأن شعر الإسلاميين أرفع من شعر الجاهلين ، لأنهم نشروا على أساليب القرآن وال الحديث ، فنهضت طباعهم ، وجادت قرائتهم ، وفانوا من قبلهم من أهل الجاهلية ، ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبي القاسم قاضى غرناطة ، وكان شيخ هذه الصناعة : ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهلين ؟ ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه ، فسكت طوبلا ، ثم قال لي : والله ما أدرى . فقلت : أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك ، أو لعله السبب فيه ؟ وذكرت له هذا الذي كتب ، فسكت معجبا ، ثم قال : يافقني ، هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من

بعدها يؤرثني ، ويصبح في مجالس التعليم إلى قولي ، ويشهد لي بالنباهة
في العلوم ،^(١)

٣ - أما الأدب فالغاية منه إجاده المنظوم والمنثور على أساليب
العرب ، والاطلاع على أيامهم وأنسائهم وأحوالهم عامة ، وذلك كله عنون
على فهم كلامهم وأساليبهم^(٢)

٤ - وتحدث عن الغاية من كل علم سواء أكان من العلوم اللسانية
أم العلوم الشرعية أم من العلوم العقلية^(٣)

تعليمي

١ - الحق إن الذى لا يدرس علوم البلاغة ولا يتزود بالذوق الأدبى
يعجز عن تفهم أسرار بلاغة القرآن الكريم من حيث أسلوبه القوى
الجزل الرصين ، ومعناه الرفيع البديع ، وعدوته لفظه ونطاعته ، لكنه يعلم
أنه معجز ، لأن العرب عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة من مثله ، وهذا
من العالم المتأدب جد قبيح .

على أن ابن خلدون أغفل مزايا العلوم اللسانية والبيان خاصة في إعانتها
على النظم الجيد والنشر البارع ، وفي تربيتها الذوق وملكته النقد ، أو في
مساعدتها على الموازنة والمقابلة بين الشعراء والكتاب .

٢ - وحسن منه أن يعلل لرقه شعر الإسلاميين بأنها أثر من دراسة
القرآن والحديث . لكن كانت هناك عوامل أخرى ولا سيما بعد عصر صدر

(٢) المقدمة ٤٨٨

(١) المقدمة ٥١٠

(٣) المقدمة ٣٦٥ - ٤٠١

الإسلام ، أى في عصر جرير والفرزدق ، وبشار ، وصدر الدولة العباسية كاملاً ابن خلدون ^(٤) ، منها البيئات الجديدة ، والحضارة الناشئة ، والمدنيات المغلوبة غالبة ، والعلوم والثقافات المختلفة ، وطبيعة الترقى والتطور ، والتشجيع والمنافسة الخ كانت هذه كلها كثيرة نهل منه الأدب فاخضلاً ، وأثر ، وآتى أكلاً عذباً شهياً .

٣ - على أن ابن خلدون قد اتخذ العلوم والصناعات وسائل للكسب والنفع المادى في الغالب ، متأثراً بنزوعه العملى ، وعقله التجربى . فلقد قدم العيش الضرورى على الصناعة والعلم ، ثم قدم الصناعة المختصة بالعيش كالحياكة والنجارة على المختصة بالأفكار كالغناء والشعر والتعليم . وهو بذلك يقدر العلوم والصناعات بقيمتها المادية ، ويهمل آثارها في تهذيب الخلق ، وترقية الوجدان ، وإرهاق العقل .

تعليم البنات

لم يشر ابن خلدون إلى تعلم البنت ، بل لقد أغفلها في حديثه عن المنزل والصناعات ، وخصص مباحث طوالاً لدراسة البوادي ، وشرح الصناعة ، وبيان أنواع العلوم ، وفروعها ، وأطوار رقيها ، وأشهر مؤلفاتها في الشرق والغرب ، لكنه لم يذكر المرأة مرة واحدة ، أو يلمحها لحظة عابرة .

على أن الإسلام فسح مجال العلم للذكور والإثناين ، وفي ظلال الإسلام ذاعت شهرة كثيرات من العلامات والأديبات والفقيرات وراويات الشعر

والمعنىات، وقد سمع الإمام الشافعى الحديث من نفيسة بنت أبي محمد الحسن
ابن زيد بن الحسن بن على^(١).

ثم كان منهن معلمات ذوات منتديات كسكنية بنت الحسين ، ومؤنسة
الأيوبيه ، وشامية التيمية ، وزينب البغدادية ، والعروضية ، وشهدة الكاتبة .
على أن المرأة التونسية — وتونس وطن ابن خلدون — كانت قد اشتهرت
في عصر الإسلام الذهبي بحسن الإنتاج ، ودماثة الخلق ، ولدين العريكة ،
والاستعداد للقيام بالأعمال ، حتى قال أبو عثمان الدلال : إن أعلى مثل
للجارية أن تكون من أصل ببرى ، قد فارقت بلادها في التاسعة من
عمرها ، ومكثت بالمدينة ثلاثة سنوات ، ثم ثلاثة بمكة ، ثم نزحت إلى
العراق في السادسة عشرة ، فإذا ما يبعث في الخامسة والعشرين كانت قد
جعت بين جودة البربريات ، ودلال المدنيات ، ورقة المكيات ، وثقافة
العراقين^(٢).

إذاً كانت المرأة المسلمة جديرة بالتعليم ، وقد أتيحت لها الفرصة
فأظهرتها ، والمرأة التونسية صالحة للتعليم ، قابلة للصوغ والتشكيل ، مستعدة
للفهم والتلقي ، فكيف جاز لابن خلدون أن يغفل عن تربية المرأة
وتعليمها ؟ ولست أوقن بالباعث على هذا الإهمال ، وأرجح أن الركود
الذهني الذى كان يغمر العالم الإسلامي في عصر ابن خلدون قد صرفه عن
المرأة إلى الرجل . وليس ببعيد أن كانت النساء على عهده مكاسبيل جواهل ،
ولا سيماء في المغرب ، فلم يسترعين تفكيره وعنايته . على أنا كنا نرقب

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٦٩

(٢) ضحي الإسلام ١ / ٨٦

من علامتنا الاجتماعي الفذ أن يخرج على أوضاع معاصرية ، فيعني بتربيه النساء و تعليمهن ، ويرسم الخطة المثلى للعالم الإسلامي في وظيفة المرأة ، وما يليق لها من العلوم والأعمال . وكنا نرتفع منه أن يجهر برأيه إذا كان لم يأنس نفعاً في تعلم النساء ، ولم ير حاجة إلى تثقيفهن أو تعليمهن صناعة ، لأنهن خلقن للبيوت وجر الذيول ، أو لأنهن غير صالحات للنبوغ والتفوق كذهب روسو وشو بنهور .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الفروض كلها أو بعضها لا تنفيه من النقد .

وقد ذهب أفلاطون إلى أن تعلم البنات ما يعلم الذكور ، ودعا ابن سينا إلى تعلم المرأة قبل عصر ابن خلدون .

آراء في علم النفس

في المقدمة آراء في علم النفس منشورة ، رأيت أن أجمع بعضها إلى بعض ، كاً سبق في دراسة البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وأن أغرضها ، وأأشفع إليها التحليل والموازنة

دراسة النفس ضرورية للمرء بين

يرى أنه يجب على من يتصدرون لتعلم النشء أن يدرسوا طبيعة الفكر ، وتطوره من الحداثة إلى الكبر ، ليسروا العقل فيما يقررون من علوم ، وليجاروا قدرة المتعلم في القدر الذي يعلمونه إياه ، فيتدرجون به شيئاً فشيئاً ، ويقربون له الشرح على سبيل الإجمال ، من اعين قوته عقله واستعداده لقبول ما يلقون عليه ^(١)

تعلمين

أسلفت في (الطريقة المثلية للتّعلم) ان هذا الرأي مجمع عليه من المربيين المسلمين وغيرهم .

على أن ابن خلدون لم يرض طريقة المعلمين في عصره ، لأنهم « يجهلون طرق التعليم وإفادته » ، ويحضرون المتعلّم في أول تعلّمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك منانا على التعليم

وصواباً فيه . . . ويخلطون عليه بما يلقون له من غaiات الفنون في مبادئها ،
و قبل أن يستعد لفهمها . . . ^(١)

وقد ندد مونتين بعلمي عصره (القرن السادس عشر) تنديداً يشبه
ما قاله ابن خلدون : « ما أشبه المعلمين في هذا الزمان بكبار الطير ، تذهب
إلى الحقول ت نق卜 فيها عن طعام لصغارها ، فتجمعت من هنا وهناك كل ما
صادفها ، حتى إذا مامألات مناقيرها بالحب عادت فألاقته في مناقير أولادها ،
من غير أن تذوق له طعماً . فالمعلمون اليوم كذلك ينقبون في الكتب ،
ويجمعون منها مسائل العلوم والفنون ، من غير تمييز بين ما يفيد التلميذ منها
وما لا يفيده ، ثم يضعونه على أطراف ألسنتهم ، حتى إذا صاروا بين التلاميذ
تفلوه بینهم ، وكفوا لهم حفظه وإعادته .. فهم بذلك يشجعون نفاساً على الاستجداء
ونحن أغنياء ، ويدربوننا على أن نملأ أعيننا من أشياء غيرنا ، وترك
أشياءنا مجحفة مهملة » ^(٢).

الملكات

ذهب ابن خلدون إلى أن إجاده ملكتين في آن واحد أو في وقتين
أمر مستحيل أو متعذر ، سواء في ذلك الصناعات والعلوم ، « ومثال ذلك
الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد بعدها
ملكه النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ، ولم ترسخ
صيتها » ^(٣) ، ولا تتفق إلا جادة في فن المنظوم والمتثور معاً إلا للأقل ،
لأن البيان ملكة في اللسان » ^(٤).

(٢) تاريخ التربية ٢٥٤

(٤) المقدمة ٥٠١

(١) المقدمة ٤٧١

(٣) المقدمة ٣٣٩

ويعلل لذلك بأن الملائكة صفات للنفس وألوان ، فلا تزدحم دفعه ،
ومن كان على الفطرة كان أسهل قبولا لها وأحسن استعدادا لحصولها ،
فإذا تلونت النفس بالملائكة الأخرى ، وخرجت عن الفطرة ضعف فيها
الاستعداد لقبول ملكه أخرى . وهذا يشهد له الوجود ، فقل أن
نجد صاعب صناعة يحكمها ثم يحكم أخرى بعدها ، ويكون فيما على رتبة
واحدة من الإجادة . وكذلك أهل العلم أصحاب الملائكة الفكرية ، فإن من
حصل منهم على ملائكة في علم قل أن يجيد ملائكة علم آخر على نسبة الأول ،
إلا في الأقل النادر ^(١) . والذين كانت لهم سابقة في العجمة لا يبرعون في
اللسان العربي وإن تعلموه وعلموه ، كالفرس والبربر والروم والإفرنج ^(٢) .
 فهو يرى أنه من النادر أن يجيد شخص واحد صناعتين ، أو يتقن
لغتين ، أو يبرع في علمين .

تعليق :

صدر ابن خلدون في هذا الرأي عن بعض القدامى الذين قسموا العقل
إلى عدة قوى سموها ملائكت ، من يونان وعرب ، وبقيت هذه الفكرة
إلى زمن قريب . فعرفها (هملتون) و (ليبنز) بأنها نوع خاص من الإدراك
بسبب العمل العقلي . وتوسع (لوك) فافتراض لكل عمل عقلي ملائكة خاصة ،
وتبعه كثير ، فقالوا ملائكة الأخلاقية ، والملائكة المميزة ، وملائكة التصور ،
وقال (فروبل) ملائكة الكلام . وهذا هو الذي ذهب إليه ابن خلدون ،
فإنه قال ملائكة الحساب ، وملائكة اللغة ، وملائكة التجارة ، وملائكة التعليم الخ .

(٢) المقدمة ٥٠١

(١) المقدمة ٣٤٠

لَكُنْ أَبْنَ خَلْدُونْ رَأَى أَنَّ الْمَلَكَاتِ مَكْتَسِبَةٌ ، وَبَعْضَ الْمَحْدُثِينَ مِنَ الْمَفْكُرِينَ رَأَوْا أَنَّهَا هَبَاتٌ مُورَوَّثَةٌ لَا تَكْتَسِبُ وَلَا تَعْلَمُ ، فَنَ وَهْبَهُ اللَّهُ مَلَكَةُ الْحَفْظِ كَانَ حَافِظًا ، وَمَنْ وَهْبَهُ اللَّهُ مَلَكَةَ الذِّكْرِ كَانَ ذَكُورًا ، وَمَنْ مَنَحَهُ اللَّهُ مَلَكَةَ التَّخْيِيلِ كَانَ شَاعِرًا أَوْ قَصَاصًا أَوْ أَدِيبًا .

وَرَأَى أَبْنَ خَلْدُونْ أَنَّ قُوَّةَ مَلَكَةِ لَا تَقْوِيَةِ الْأُخْرَى ، وَرَأَوَا أَنَّ تَقْوِيَةَ مَلَكَةٍ فِي نَاحِيَةٍ يَقْوِيَهَا فِي سَائِرِ النَّوَاحِي ، وَيَقْوِيَ غَيْرَهَا مَعَهَا . وَلَكِنَّ الْفَلَاسِفَةَ وَالْعُلَمَاءَ النُّفُسَ الْمَحْدُثِينَ عَلَى أَنَّ الْعُقْلَ وَحْدَةً لَا تَنْجِزُ أَنَّ فَقَدْ أَرْجَعَ (كَانَتْ) إِلَى الْإِدْرَاكِ وَحْدَهُ كُلُّ أَعْمَالِ الْعُقْلِ ، وَقَرَرَ (دِيكَارُتُ) أَنَّ الْعُقْلَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَدْرِكُ وَيَعْيَى ، هَذَا أَثَبَتَ وَجُودَهُ بِقَوْلِهِ (أَنَا أَفَكُرُ ، أَنَا مَوْجُودٌ) لَأَنَّ الْفَكْرَ هُوَ الْمَظَهُرُ الَّذِي يَشْعُرُ الْكَائِنَ الْحَيَّ بِوَجُودِهِ ، وَالْعُقْلُ عَنْهُ وَحْدَهُ .

وَقَرَرَ عِلْمُ النُّفُسِ أَنَّ الْعُقْلَ وَحْدَةً كَامِلَةٌ لَا يَمْكُنْ تَبْحِرَتَهَا ، وَلَا تَقْسِيمُهَا إِلَى قُوَّى ، وَأَنَّ أَعْمَالَهُ مَتَّصِلَةٌ مُتَرَابِطَةٌ ، وَأَنَّ تَمْرِينَ مَلَكَةَ وَاحِدَةٍ وَتَقْوِيَتِهَا فِي نَاحِيَةٍ مُعِينَةٍ يَقْوِيَهَا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَحْدَهَا ، وَلَا يَحْدُثُ أَيْ تَغْيِيرٌ جَوْهَرِيٌّ فِي النَّوَاحِي الْأُخْرَى هَذِهِ الْمَلَكَةُ أَوْ لَغْيَرِهَا ، وَنَلَاحِظُ أَنَّ عِلْمَ النُّفُسِ الْمَحْدُثِ حِينَما يَقُولُ مَلَكَةٌ لَا يَقْصُدُ إِلَّا التَّسَامُحَ وَالْتَّسْهِيلَ لَا بُجَارَةَ الرَّأْيِ الْقَدِيمِ .

وَلَقَدْ قَامَ الْعَلَمَةُ (ثُوْرَنْدِيُكُ) بِتَجَارِبٍ أَثَبَتَتْ لَهُ أَنَّ الْمَلَكَةَ الْوَاحِدَةَ قَدْ تَقْوِيَ فِي فَرْعٍ مِنْ نَاحِيَةٍ ثُمَّ لَا تَقْوِيَ فِي أَشْبَاهِ هَذِهِ الْفَرْعِ .

وَإِذَا فَعَلَ النُّفُسُ الْمَحْدُثُونَ مَعَ أَبْنَ خَلْدُونَ فِي أَنَّ تَقْوِيَةَ مَلَكَةٍ لَا يَؤْدِي إِلَى تَقْوِيَةِ أُخْرَى ، وَيَخَالُفُهُ فِي تَقْسِيمِهِ الْأَعْمَالِ الْعُقْلِيَّةِ إِلَى مَلَكَاتٍ مُنْفَصَلَةٍ مُنْعَزَلَةٍ ، هَذَا لَا يَرِى أَنَّهُ مِنَ الْعُسِيرِ عَلَى شَخْصٍ أَنْ يَجِيدَ صَنَاعَتَيْنِ أَوْ عِلْمَيْنِ

في آن واحد ، أو في آوئتين متعاقبتين .

وقد يكون ابن خلدون على حق في أن الإنسان لا يجيد ملكتين على السواء ، وإن أجادهما على تفاوت . فالكثير الغالب أن يجيد الشخص في ناحية ويرز فيها ، فالبحترى وأبو نواس والمني أجادوا الشعر وحده ، وابن زيدون شاعرًا أعظم منه كاتبا ، وكذلك شوقى . وسعد زغلول خطيباً أعظم منه كاتبا .

و (شوبر) الموسيقى البارع كان لا يحسن غير الموسيقى ، و (لاملاس) أعظم رياضي في عهد نابليون أخفق في إدارة العمل الذي وليه ، و (نيوتن) المفكر العظيم أخطأ خطأً مضحكا ، فقد كان له قطتان يعتز بهما ، ويأنس برؤيهما في مكتبه ، وفكرا في طريقة تيسير عليهما الدخول والخروج بغير أن يقوم ليفتح لها الباب ، ففتح فيه ثغرتين صغيرة وكبيرة لكل منهما ، ثم أدرك خطأه ، واكتفى بال الكبرى لأنها تصلح لهما على التعاقب .

العقل الجماعي

١ - شبه الجماعة بالفرد في هضتها وسقوطها وأسباب كليهما . وقال إن أفكار الأفراد مجتمعة هي أفكار المجتمع ، وإنتاجهم العام هو إنتاجه ، ومائل نمو الدولة وأطوارها بنمو الفرد وأطواره .

٢ - وإذا اعتمد زعم المنجمين أنَّ العمر الوسط للإنسان مائة وعشرون سنة فقد قاس عليه عمر الدولة ، ورجح أنها لا تمر أكثر من ذلك . وقال إن هذا العمر يحصر ثلاثة أجيال ، والجيل أربعون سنة ،

لقوله تعالى (فإنها محمرة عليهم أربعين سنة) ليشب منهم جيل قوى صالح،
ويُفْنِي هذا الجيل الضعيف الطالح^(١).
إذاً فالجماعة كالفرد في نشأتها ونموها وأطوارها وأراءها وأعمارها.

٣ - ونُسَب إلى فقدان الفرد حسبه أسباباً جعلها نفسها هي التي تسقط
الدولة، فرأس الأسرة وبأبي مجدها هو الحفيظ على بناته، الحريص على
نماءه وبقائه، وابنه يشبهه، ولكنه أقل منه حرضاً، لأنه لم يعan
ماعنى أبوه، وحفيده مترسم طريقه مقتضى أثره، يقلد ولا يبتدع، فهو
أقرب إلى التقصير من سلفه، ثم ابن الحفيد أعظم من هؤلاء تقصيراً،
وأعظم افتئاناً بأن هذا المجد جاءهم طوعاً، وأنه حق لهم، لا يجوز أن يطير
عنهم، فلا يوطد دعائمه، ولا يقرب إليه أعوااناً وأنصاراً، وهنا ينهر على
يديه ما بني أوائله.

وبمثل هذا تتطور الدولة وتُسقط، لأن الجيل الأول أقرب إلى
البداوة وخشورتها، فهم أهل غالب وبسالة ومسارعة إلى المجد. والجيل الثاني
متزلف، يكل أمره وبناء مجده إلى رئيسه، فهو ضعيف متواكل، ولكن
قريبه من الجيل الأول يحفزه إلى الاعتذار بميراثه. أما الجيل الثالث فإن
غضارة النعيم وخفض العيش، واستفاضة الرفة، واعتياد الخضوع، كل
أولئك يفقدون صفات الرجال، ومؤهلات الملك، فلا هو بالباقي، ولا هو
بالباقي لما ورث، وهنا يضطر صاحب الأمر إلى الاستئثار بالجذب،
والاستكثار من الموالي، واصطناع من يظنه أزواجاً ولية، فتسقط الدولة،
ويدرّكها الفناء^(٢).

(٢) المقدمة ١٤٢ ، ١١٥

(١) المقدمة ١٤٢

تعليق :

لم يوفق ابن خلدون في قياسه الجماعة على الفرد ، لأن الجماعة صارت بالجمع ذات عقل جمعي خاص ، له ميزاته وخصائصه التي تغير العقل الفردي . فعقول الأفراد في المجتمع كالعناصر التي تتحد اتحاداً كيميائياً ، فتصير مركباً جديداً ، له صفات غير صفات أجزاءه التي ركبتها . « وسبب ذلك انضمامهم وصيرورتهم جماعة واحدة ، ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من القوة إلى الفعل إلا عند الفرد في جماعة ، فالجماعة ذات عارضة مؤلفة من عناصر مختلفة ، اتصل بعضها بعض إلى أجل ، كخليلات الجسم الحي التي ولدت باتصالها ذاتاً أخرى ، لها صفات غير صفات كل خلية منها »^(١) .

وحتى على فرض أن الفرد يستطيع أن يُسْبِّم مختاراً في إيجاد بعض الانفعالات الاجتماعية فإن الحالة النفسية التي يشعر بها في الجماعة معايرة لما يشعر به منفرداً ، ولذا إذا انقضت الجماعة ، وكَفَّت العوامل الاجتماعية عن التأثير فيها ، ووجد كل امرئٌ مينا نفسه وجهاً لوجه فإن العواطف التي مرت بشعورنا قبيل ذلك تبدو لنا غريبة ، إلى حد أنها لانكاد نصدق أنها قد مرت بشعورنا فعلاً . ومن الممكن جداً أن يندفع بعض الأفراد المسلمين كل المسالمة إلى القيام بأعمال همجية متى وجدوا في الجماعة .

وينطبق هذا الانفجار الاجتماعي المؤقت على حركات الرأي العام الأكثـر دواماً ، أى على التيارـات الاجتماعية التي تحدث في البيئة دون

انقطاع ، أو التي تنشأ في المجتمع كله أو في بعض دوائره الضيقة التي تمس
العقائد الدينية والسياسية ، أو التي تتعلق بالأراء الأدبية والفنية وغيرها ،^(١)

الفطرة

لابن خلدون في فطرة الطفل ثلاثة آراء متضاربة ، أو على الأقل
متضارب الأولان منها والثالث .

١ - يقول إن أهل البايدية أقرب إلى الخير من أهل الحاضرة ، لأن
نفوسهم وهي على الفطرة استبقيت إليها عوامل الخير فقربتها من الخير ،
أما الحاضر فقد أسرعـتـ إـلـيـهـ عـوـاـمـلـ الشـرـ فأـدـتـهـ مـنـ الشـرـ ، وـيـسـتـدـلـ عـلـىـ
ذـلـكـ بـقـوـلـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : «ـ كـلـ مـولـودـ يـولدـ فـيـ الفـطـرـةـ ، فـأـبـوـاهـ
يـهـوـدـاـهـ أـوـ يـنـصـرـاـهـ أـوـ يـمـجـسـاـهـ ،^(٢) ». وـمـوجـزـ رـأـيـهـ فـيـ هـذـاـ الفـصـلـ أـنـ
فـطـرـةـ الطـفـلـ نـقـيـةـ ، خـلـيـةـ مـنـ الشـرـ وـمـنـ الخـيـرـ عـلـىـ السـوـاءـ .

٢ - ثم يقول بعد ذلك بثلاث صفحات «ـ اعلم أن الله سبحانه ركبـ
في طبائع البشر الخير والشر ، كما قال تعالى : «ـ وـهـدـيـاهـ النـجـدـيـنـ »ـ ، وـقـالـ :
«ـ فـأـهـمـهـماـ بـجـوـرـهـاـ وـتـقـواـهـاـ ». وـالـشـرـ أـقـرـبـ الـخـلـالـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ إـذـ أـهـمـلـ
فـيـ مـرـعـىـ عـادـاتـهـ ، وـلـمـ يـهـذـبـ الـاقـتـداءـ بـالـدـينـ ، وـذـلـكـ شـأـنـ الـأـكـثـرـيـنـ إـلـاـ مـنـ
عـصـمـ اللـهـ وـوـفـقـهـ . وـمـنـ أـخـلـاقـ الـبـشـرـ الـظـلـمـ وـالـعـدـوـانـ ، فـنـ اـمـتـدـتـ عـبـنـهـ إـلـىـ
مـتـاعـ أـخـيـهـ اـمـتـدـتـ يـدـهـ إـلـىـ أـخـذـهـ ، إـلـاـ أـنـ يـصـدـهـ وـازـعـ ، كـمـ قـيلـ :
وـالـظـلـمـ مـنـ شـيـمـ النـفـوـسـ فـإـنـ تـجـدـ ذـاـ عـفـةـ فـلـعـلـةـ لـاـ يـظـلـمـ^(٣)

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع ٣٦

(٢) المقدمة ١٠٧

(٣) المقدمة ١٠٣

فهو هنا يقرر أن الإنسان بفطرته أقرب إلى الشر نزاع إليه مالم يهذب
بردعي حاكم أو زجر وازع أو تأثير دين .

٢ - ثم يقول إن الإنسان أقرب إلى خلال الخير بأصل فطرته ،
وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه ،
وأما من حيث إنه إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب (١) .
وهو هنا يرى أن الإنسان أميل إلى الخير بطبيعته .

تعاريف :

من التعسف أن نحاول التوفيق بين هذه الآراء ، لأنها متعارضة
متناقضه .

والحق إن الطفل يولد كالصفحة البيضاء ، لم يسطر فيها خير ولا شر ،
ولكنه مستعد لها جميعاً ، قال تعالى « وهديناهم النجدين » ، أي هديناه إلى
طريق الخير والشر . وقال « ونفس وما سواها فألهما بخورها وتفوها » ،
وقال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه
أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وهذا ما يقره العلم ، لأن الطفل يستهل على العالم وله غرائزه ونزاعاته
وميوله ، وكلها قابلة للتشكل والتأثر .

وذلك أيضاً ما رأاه الغزالي ، فقد قال : « كل مولود يولد معه لا صحيح
الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، والصبي بجوهره خلق
قابلًا للخير والشر جميعاً . وبالاعتياد والتعلم تكتسب الرذائل . والصبي
أمامه عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة لـ كل ما نُقش ، فإن عود
(م ٨ - ابن خلدون)

الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وإن عُود الشر وأهمل إهمال البهائم شق و هلك .

ولقد هدم روسو رأى المربيين في عصره ، والدينيين في دهره ، الذين ذهبوا إلى أن الطفل شرير بطبيعته ، وأن المربى هو الذي يرشده إلى الخير ويُنْجِّنهُ الشر ، فقرر في مطلع كتابه (إميل) «أن الله لا يخلق إلا الجميل الخير ، والبديع الشَّرّ» ، وقد خلق الطفل جميلاً نقياً ، فصيروه الإنسان دمياً زرياً . ومن قوله نعلم أنه يعتقد الخير في الفطرة ، ويجد الشر عارضاً عليها ودخلاً .

الذوق اللغوي

١ - يقول إن الكلمة الذوق يتداوها الدارسون لفنون البيان ، و معناها حصول ملامة البلاغة للسان ، و يشرح ذلك ، ففهم من شرحه أن الذوق اللغوي هو القدرة على إبراد الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، وأنه القدرة على تمييز جيد الكلام من ردئه ، و بليه من ركيكه «فإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحى مجّهـ ، و بنا عنه سمعه بأدنـ فـكرـ بلـ بـغـيرـ فـكـرـ ، إـلاـ بـماـ استفادـهـ منـ حـصـولـ هـذـهـ الـمـلـكـةـ ، لأنـ الـمـلـكـاتـ إـذـاـ اـسـتـقـرـتـ وـرـسـخـتـ فـيـ حـالـهـاـ ظـهـرـتـ كـأـنـهـ طـبـيـعـةـ وـجـبـةـ لـذـلـكـ الـحـلـ . وـ لـذـلـكـ يـظـنـ كـثـيرـ مـنـ الـمـغـفـلـينـ مـنـ لـمـ يـعـرـفـ شـأـنـ الـمـلـكـاتـ أـنـ الصـوـابـ لـلـعـرـبـ فـيـ لـغـتـهـ إـعـرـابـاـ وـ بـلـاغـةـ أـمـرـ طـبـيـعـيـ ، وـ يـقـولـ كـانـتـ الـعـرـبـ تـنـطـقـ بـالـطـبـيـعـ . وـ لـيـسـ كـذـلـكـ ، وـ إـنـماـ هـىـ مـلـكـةـ لـسـانـيـةـ فـيـ نـظـمـ الـكـلـامـ تـمـكـنـتـ وـرـسـخـتـ ، فـظـهـرـتـ فـيـ بـادـىـهـ الـأـمـرـ أـنـهـ جـبـةـ وـطـبـعـ .

٢ - و يشرح تربية الذوق بأن ملكته تحصل بمارسة الكلام العربي

وتسكرره على السمع ، والتقطن لخواص تركيبه ، وليس تحصل بعمره
القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان ، لأن هذه القوانين تفيد
علمًا بذلك اللسان ، ولا تقييد حصول الملكة .

٣ - ويقرر أن الذوق أمر وجداني ، غير خاضع لقوانين ، فلقد
يستطرف الإنسان شيئاً ، ثم يعجز عن بسط الأدلة على استطرافه ، وإذا
عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم
أعرض عنه وجه ، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما
يعجز عن الاحتجاج لذلك ، كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن
ذلك استدلال بما حصل من القوانين المستفاده بالاستقراء ، وهذا أمر
وجداني حاصل بمارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ،^(١)

تعليق :

ذهب ابن خلدون إلى أن الذوق يكتسب بالسماع والمرانة ، ولكن علم
النفس الحديث يقرر أنه استعداد فطري مكتسب ، فهو موهبة فطرية
طبيعية منحها الله كل إنسان ، ولكن للتربية والتجارب شأن كبير في تقويتها^(٢)
فالقريحة الخصبية ، والذهن الصافي ، والخيال المنطلق ، والميل إلى براعة التعبير
كلها صفات موروثة ، ثم يأتي التهذيب والتعليم والفرص المواتية فينمو
الذوق ويسمو .

ويتفق علم النفس مع ابن خلدون في أن الوجدان أهم عنصر من عناصر
الذوق ، وأن للبيئة وال التربية أثراً قوياً في نموه ، وأن الأدب أعظم مواد

(١) المقدمة ٤٩٥ ٦٤٨٨ ٤٩٣

(٢) في علم النفس ٣/٢٤٧

الدراسة أثراً في تربيته ، على أن تكون نماذجه مختارة متدرجة مع السن ،
مشروعه شرعاً يكشف عن جمالها وروعتها . ثم يحاكيها المتعلم فيها ينظم أو
يكتب^(١) . ثم تستقبل شخصيته بعد ذلك .

الإيحاء

تكلم ابن خلدون في علم الطب ، ثم قرر أن الطب المنقول في الشرعيات
ليس من الوحي ، وإنما هو على غرار طب البايدية ، المستند إلى التجارب ،
المعتمد على الأعم الأكثر . ثم قال إن الطب الوارد في الأحاديث النبوية
ليس مشرعاً ، ولكنه يشفى إذا كان الباعث على المعالجة به التبرك وصدق
النية ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث
لتعرينا الطب »^(٢)

ومن الإيحاء أيضاً التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين ، وهذا ماتسميه
الفلاسفة السحر ، ونوع قائم على التأثير بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر
أو خواص الأعداد ويسمى الطسلمات ، ونوع يؤثر بالتصرف في الخيال
ويوحى إليه بالصور المقصودة ، فينظر الرامون كأنها في الخارج ، ولا شيء
من ذلك ، وهذه هي الشعوذة ، ومن هذه التأثيرات النفسية الإصابة
بالعين^(٣)

تعليم

١ - بني ابن خلدون نجاح العلاج أحياناً على التبرك وصدق النية ،
وهذا ضرب من الإيحاء ، لا شك في أنه يشفى الأمراض الجسمية والنفسية

(١) في علم النفس ٣/٢٥٩ (٢) المقدمة ٤١٤ (٣) المقدمة ٤٢٢-٤١٦

أحياناً ، وكثير من العلماء النفسيين يعالجون الآن بالإيحاء . يقول العلامة مكدو جل « إن الإيحاء وسيلة لنشر الآراء والمعتقدات » ، وهذا حق ، لأن في كل منا ميلاً فطرياً إلى تصديق ما يسمع ، ولكن هذا الميل مختلف تبعاً لقدرة الموحى ومكانته في النفس ، وتبعاً لنفسية الموحى إليه .

وإن الإنسان ليكون أسرع تأثراً بالإيحاء إذا جاءه من جهة جديرة بالطاعة كالمدرس والطالب ، والطبيب والمريض ، والشخص نفسه ، فالذى يوحى إلى نفسه أن صحته معتلة سرعان ما يحس بالتعب ، والذى يوحى إلى نفسه أنه مريض كثيراً ما يمرض .

وفي أوروبا اليوم علاج يعتمد على الإيحاء ، فإن مئات الآلاف يحجون إلى مدينة (لورد) كل سنة ، وهى مدينة صغيرة في الجنوب الغربى من فرنسا ، بها ينبوع مياه معدنية ، زعموا أن العذراء مريم ظهرت لإحدى فتياتها فى سنة ١٨٥٨ وأسمها (برنار特 سوبروس) ، فلما قصت قصتها على الناس أنشئوا بتلك المدينة كنيسة للعذراء أصبحت كعبة المرضى ، وأقبل عليها الناس بالنذور يبتغون الشفاء . وقد يعاشت ابن سينا بالعلاج النفسي .

٢ - ومن عجب أن يدلل ابن خلدون على وقوع السحر بأدلة ، منها أن النبي سُّـحـرـ ، وإن كان قد ذهب إلى هذا بعض المفسرين ، لكنهم لم يصيروا في تفسير الآية الكريمة « ومن شر النفايات في العقد » . ثم أورد حوادث شاهدها بنفسه ، منها أن بالغرب صنفاً من منتقلٍ هذه الصناعة يسمون **البِعَاجِين** ، كانوا يشieren إلى الكساء أو الجلد فيتمزق ، ويشارون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج وتتخرق . والعلم لا ينكر السحر ، على أنه خفة في الحركة ، ومهارة في ستر العمل ، أو انتفاع بخصائص المواد ، أو التويه ،

وهو ضرب من الشعوذة . أما السحر على أنه تأثير في العالم وتوجيه القوى ، فالعلم ينكره .

أما العين التي تستحسن المرئى وتفرط في استحسانه ، وتنهى سلب الحسن من مكانه ، فتؤثر فيه بالفساد ، فهي إن صحت نوع من الإيجاد . لكن ابن خلدون عزا إليها أكثر ما لها ، ونقل قوله « القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل ، والقاتل بالعين لا يقتل »^(١) .

التعلم طبيعة

يرى أن التعلم طبيعة في الإنسان ، لأنه امتاز من الحيوان بالفكر الذي هداه إلى الاجتماع والتعاون ، ومن ينبع هذا الفكر تتفجر عيون العلوم والصناعات ، وينشأ الباعث إلى الاستزادة من المعرفة ، بالرجوع إلى السابقين في العلم ، المتفوقيين في المعرفة^(٢)

تعليم

حقاً إن العلم والصناعة من آثار الاجتماع ، وإن غريزة الاستطلاع وحب المعرفة تظهر في سؤال الصغار للكبار ، والاطلاع على تجارب من سلوفا . ولا تقف غريزة الاستطلاع عند هذا المحيط الذي رسمه ابن خلدون ، بل تجذره إلى آفاق أخرى ، فهي التي تأخذ بالإنسان إلى تعرف ما يحيط به ، واختباره وفحصه ، والسؤال عنه ، والحكم عليه ، ومن هنا تنبت الفلسفة كما يقول مكدو جل . وهذه الغريزة هي بذور الفحص والبحث كما يقول وودورث^(٣)

١٠٢ / (٣) في علم النفس

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) المقدمة ٣٦٠

الأحلام

١ - يرى أن في الإنسان روحًا عاقلاً يدرك جميع ما في العالم ، لأن الإدراك حقيقة وذاته ، فهو نفحة من الله ، وقبس كاشف ، لا يتقييد بزمان ولا مكان ، ولكن حبسه في البدن ضرب حوله نطاقاً من المادة ، فـدراكه بحدودها ، فلم يتطلع إلى ما وراء سجنه ، ولم يدرك إلا ما أمامه ، ولم ير إلا ما يقع لديه ويحدث ، فالروح لا تستشرف الغيب ؛ لأن الجسم كله وقيدها .

ولكن الجسم وحواسه تضعف في النوم ، فتنتهز الروح هذه الفرصة ، وتلوذ بعالمها الفسيح ، وتجرد عن البدن قليلاً ، وهنا تدرك من عالم الغيب لمحه ، على قدر تحرّدها حرّيتها ، ثم تلقى ما أدركت إلى الخيال ، ليصوّره بالصورة المناسبة لها ، ويدفعه إلى الحس ، فيراه النائم كأنه حس ، وبذا يتنزل المدرّك من الروح إلى الحس على جناح الخيال .

ويرى أن الرؤيا وأضغاث الأحلام تتفقان في أن كاتبها صور في الخيال في أثناء النوم ، وتحتّلavan في أن الرؤيا صور خيالية منزلة من الروح ، أما الأضغاث فصور أودعها الخيال في الحافظة منذ اليقظة ^(١) .

٢ - وللرؤيا علم تعبير وتفسير ، ذلك بأن الرؤيا ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تقتصر إلى تأويل ، والتي من الملك هي الصادقة التي تفتقر إلى تعبير ، والتي من الشيطان هي الأضغاث .

وَحِين يلقي الروح إلى الخيال ما أدرك فإنما يصوره في قوالب قد أدركها
الإنسان إدراكاً حسياً من قبل ، لذلك لا يصور خيالاً الأعمى للسلطان بالبحر ،
ولا العدو بالحياة ، ولا النساء بالأواني ، لأنَّه لم يدرك شيئاً من هذه ، وإنما
يصور له خياله بالسموعات والمشمومات . وعلم التعبير علم بقوائمه كلية
يبني عليها المعبرون ما يُقصُّ عليهم ويُؤولونه ، فيقولون إن البحر يدل على
السلطان ، ويدل أيضاً على الغيط أو الهم أو الأمر الفادح . ويقولون إن
الحياة تدل على العدو ، وعلى الحياة وأمثال ذلك . فيحفظ المعبر هذه القواوين
الكلية ، ويعبر في كل موضع بما يلائم وبما توحى به القرآن . وتلك
القراءن بعضها في اليقظة ، وبعضها في النوم ، وبعضها ينقدح في نفس المعب
بخاصية فيه وهبها له ^(١) .

تعليم :

يتبع ما سبق أن ابن خلدون روحاني ، لأن بعض الأحلام في رأيه
ينبئ عن المستقبل ، ويقبس من الغيب ، أما بعضاً الآخر فتابع من الحافظة ،
وهذا لا يكشف عن غيب ، لأنَّه يعود إلى الذاكرة أحداثاً مرت .

وهو في مذهب الروحاني يتبع ما ذكره الكندي مختصراً من كتاب
أرسطو وأفلاطون وسائر الفلسفه أن النفس — حتى وهي في البدن —
تتجاوز في المعرفة حدود البدن الضيقة ، كما تتجاوز حدود العالم المحسوس ،
فتعلم الحقائق والأسرار ، وذلك إذا تجرد صاحبها من الماديات ، وتفرغ للنظر
والبحث ، فإذا ما فارقت البدن انكشفت لها جميع الحقائق ، وهي عند نوم
الحواس ترى العجائب ، وتتصل بالأرواح ، وتعبر إلى عالم الحق فترى

(١) المقدمة ٤٠٠

عجائب من الأحلام ، وتنصل بالأنفس التي فارقت الأبدان ، ويغيب عنها
البارى من نوره ورحمته . وليس كل نفس تفارق البدن تستطيع أن تنصل
إلى هذه الرتبة ؛ لأن من الأنفس ما فيه دنس ^(١)

وكذلك الغزال آمن بأن وراء الحس إلهاما ، وآمن بالأحلام الغيبة ،
ورأى أن الصفاء الروحي وسيلة لإدراك بعض الغيب ، وأن وراء العقل
طوزا آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ،
وأموراً أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ،
وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وليس الوسيلة إلى هذا الإدراك
من طريق الدليل والقياس أو المنطق ، لأن مبناه الذوق والوجودان ^(٢)

وهذا الرأى يخالف ما ذهب إليه الماديون من مدرسة العلامة فرويد
وغيره ، إذ ينكرون الرؤيا الغيبة ، ويعتبرون الأحلام كلها استرجاعا
لحوادث مرت - النوع الشيطاني في نظر ابن خلدون - ، أو تنفيسا عن
أمان استمرت منذ الطفولة أو اخترنت منذ الكبر في العقل الباطن ، فكبت
أو قُمعت ، مرغمة على الانتقال من الشعور إلى العقل الباطن ، واللياذ بمحاباه ،
لأنها لا تلائم المجتمع ، ولا توافق آدابه ، أو لا يستريح الشخص لذكرها ،
فتبيق مغلوبة على أمرها ، محجوبة عن ظهورها ، ثم تنضم إليها رغبات
أخرى مكبوتات مثلها ، مشبهة لها ، وكلما همت بالظهور صدتها الرقيب ،
وما الرقيب إلا الوعي . ولكن الوعي لا بد له أن يغفل حين النوم مثلا ،
فيضعف عن احتياز الرغبات الباطنة ، فتتسلى لوادا ، ولقد تتستر وتتذكر
وتتحلل غير حقيقتها ، وتبز إلى اليقظة في لباس غير لباسها . يقول فرويد

«إن الأحلام بمجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوة».

وعلى الجملة فالآحلام في نظر المحدثين من علماء النفس.

١ - تمثيلية تعيد حوادث وقعت

٢ - تفيسية ترضي رغبة مقهورة

٣ - غبية ، تذمّ بما سيكون

والعلماء في هذا النوع الآخر على مذاهب :

بعضهم يرى مارآه الكندى وابن خلدون ، وهم الروچانيون ، وبعضهم يرى أنها ناشئة عن استنباط العقل الباطن ، ويسمى هذا التعليل الاستنباطي ، وهو أقرب إلى مذهب المحدثين المعارضين للمذهب الروحانى . وبعضهم يرى أنها نوع من الإيحاء ، ويسمى هذا التعليل الإيحائى (١)

وبعد فإني أومن برأى ابن خلدون في الأحلام الغبية ، ولا أرتّاب في أحاديث القلب ، وأحسّس الروح ، وأجدني في الأيام التي أنساني فيها بروحي أحلم الحلم فقل أن يشرد ، ولقد عودني حلىًّا لا يخدع ، ولقد أرى الرؤيا والصبح يتنفس ، فأصحو على ثقة منها ويقين ، فأقصها على صديق فيتندر ، ولكنهما بعد قليل تتحقق وتظهر .

وفي الغرب والشرق علماء يدينون بالمذهب الروحانى ، ويرجون له ، بل يستحضر بعضهم الأرواح .

ولست مع ابن خلدون في تقسيمه الرؤيا إلى إلهية وملكية وشيطانية ، وأوثر تقسيمها إلى تمثيلية وتفيسية وغبية كما سبق .

(١) في علم النفس ٢٦٥ / والعقل الباطن تأليف سادر . ترجمة عباس حافظ

مكانته الأدبية

عصره السياسي والأدبي

الحالة السياسية

أطلق العرب على شمال إفريقية مما يلي مصر إلى المحيط الأطلسي (بلاد المغرب) ، فشملت هذه الكلمة إقليم إفريقية، أي المغرب الأدنى (طرابلس وتونس) ، أو المغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، وسمى هذا القسمان أيضاً بر العدوة ، لأنهما معبر إلى الأندلس .

وأطلق العرب على سكان شمال إفريقيا كلمة (بربر) ، وكان هذا اللفظ يطلق على غير العرب ، وقيل إن أصله من الكلمة بارفاروس اليونانية ، ومعناها صوت الألغة ، وقد أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ، ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانياناً أو رومانياً^(١) ، كما أطلق العرب على كل من ليس عربياً كلاماً أعمى ، لعجزه عن التكلم بالعربية .

وقد فتح المسلمون بلاد البربر في خلافة عثمان بن عفان سنة ٥٢٦، ثم توسعوا في خلافة معاوية . وحكمها ولادة من بني أمية ومن بني العباس ، ثم نشأت هناك دول مستقلة كالأندلسية (١٨٤ - ٥٢٩) والعبيدية أو العلوين (٢٩٦ - ٥٣٦) والصهاجيين بتونس (٣١٦ - ٥٣٤) والأدارسة (١٦٩ - ٥٣١) والموحدين (٥١٤ - ٥٦٦) .

(١) محاضرات في الأدب العربي ١٩١ للدكتور أحمد ضيف .

فَلَمَّا انهارت دعائِمُ دُولَةِ الْمُوْحَدِينَ خَلْفَهَا دُولَاتٌ وَإِمَارَاتٌ عَدَّةٌ ،
فَقَامَتْ فِي تُونِسِ دُولَةُ بَنِي حَفْصٍ ، وَفِي تَلْمِسَانِ وَالْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ دُولَةُ بَنِي
عَبْدِ الْوَادِ ، وَفِي فَاسِ وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى دُولَةُ بَنِي مَرِينَ ، وَقَامَتْ إِمَارَاتٌ
صَغِيرَةٌ فِي بَعْضِ النَّعْوَرِ بَعْضُهَا يَسْتَظِلُّ بِدُولَةِ هَذِهِ ، وَبَعْضُهَا خَارِجٌ
مُسْتَقْلٌ .

وَكَانَ بَنِي مَرِينَ أَقْوَى جِيرَانِهِمْ ، وَقَدْ غَزَّا عَمِيدَهُمْ وَمَؤْسِسُ دُولَتِهِمْ
أَبُو يُوسُفْ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الْحَقِّ الْأَنْدَلُسِ مَرَاتٌ ، وَتَوْفَى ٥٦٨٥ - ١٢٨٦
وَكَانَ عَلَى عَرْشِ فَاسِ فِي حِيَاةِ ابْنِ خَلْدُونَ السُّلْطَانِ أَبُو الْحَسْنِ ، وَلِلْمَلِكِ
٧٣١ - ١٣٣٠ مَهْ ، وَقَدْ غَزَّا جَبَلَ طَارِقَ ، ثُمَّ زَحَفَ عَلَى الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ
حَتَّى اسْتَوَى عَلَى تَلْمِسَانَ قَاعِدَةً مَلِكَ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ ٧٣٧ مَهْ وَبِذَلِكَ أَمْتَدَتْ
دُولَةُ بَنِي مَرِينَ شَرْقاً حَتَّى إِفْرِيقِيَّةَ (تُونِسَ) . ثُمَّ اسْتَوَى أَبُو الْحَسْنِ ٥٧٤٨
عَلَى تُونِسَ ، وَاسْتَرَدَ الْحَفْصِيُّونَ مُلْكَهُمْ ٧٥٠ مَهْ لَكِنَ الْمَوْلَى الْفَضْلِ
ابْنُ سَهْلِ الْحَفْصِيِّ لَمْ يَكُنْ يَسْتَرِدَ مَلِكَ أَسْرَرَهُ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَفْرَاجَيْنَ ، وَانْتَزَعَ مِنْهُ الْعَرْشَ ، وَأَقَامَ فِيهِ أَخَاهُ الْطَّفْلِ أَبَا إِسْحَاقِ
ابْنِ يَحْيَى الْحَفْصِيِّ فِي كَفَالَتِهِ وَإِمْرَرَهُ ، وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ ٥٥١ مَهْ .

وَفِي سَنَةِ ٧٥٣ مَهْ زَحَفَ أَمِيرُ قَسْنَطِينَيَّةَ أَبُو زَيْدَ حَفِيدُ السُّلْطَانِ يَحْيَى
الْحَفْصِيِّ فِي قَوَافِهِ عَلَى تُونِسَ ، لَيْسَتْرَدَ مَلِكَ أَسْرَرَهُ مِنْ قَبْضَةِ الْوَزِيرِ الْمُغْتَصِبِ
ابْنِ تَفْرَاجَيْنَ . وَكَانَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي حَاشِيَةِ أَبْنِ زَيْدٍ ، وَهُزِمَ أَبُوزَيْدُهُ ، فَانْسلَ
ابْنُ خَلْدُونَ مِنَ الْمَعْسَكَرِ نَاجِيَا ، ثُمَّ عَزَمَ أَبُو عَنَانَ بْنَ أَبِي الْحَسْنِ مَلِكَ
الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَلَى فَتْحِ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ ، وَاستِعْدَادُ تَلْمِسَانَ الَّتِي افْتَحَهَا
أَبُوهُ ، ثُمَّ اسْتِعْدَادُهَا مِنْهُ بَنُو عَبْدِ الْوَادِ ، فَزَحَفَ عَلَيْهَا سَنَةَ ٧٥٣ مَهْ وَامْتَلَكَهَا ،

وقتل ملكها أبا سعيد ، ثم دخلت بجایة في طاعته . وكان ابن خلدون في بسکریه بعد فراره من المعسکر ، فسعى إلى لقاء أبي عنان بتلسان ، فأکرمه بما لم يكن يحتسب ^(١) .

لقد كان منتصف القرن الثامن للهجرة من عزما بالثورات والانقلابات وتابع الدولات ، وكانت الإمارات الصغيرة تتعاقب في القواعد والغور الوسطى ، مثل بجایة وبونه وتلسان وغيرها ، وتنشب لاماکا حروب متلاحقة .

وفي هذا الوقت نفسه كانت قصور السلاطين والأمراء مسرحا للمنافسات والدسائس ، ومطمح أنظار الطامعين في الزلفي ، والطامعين إلى انتزاع السلطان ، حتى لقد كانت الحروب والثورات تنشب في الأسرة الواحدة .

الحالة الـ زـ دـ بـ يـة :

هذه لحة عجيـلـ عنـ الحـالـةـ السـيـاسـيـةـ فيـ بلـادـ المـغـرـبـ ،ـ وـ فيـ عـصـرـ ابنـ خـلـدونـ ،ـ تـبـيـنـ أـنـ الـحـرـوبـ وـ الـفـنـ لمـ تـكـنـ تـهـدـأـ ،ـ فـنـ الـطـبـيـعـيـ أـنـ يـشـغـلـ النـاسـ وـ الـعـلـمـ وـ الـأـدـبـ بـهـذـاـ الصـرـاعـ المـتـلـاحـقـ ،ـ وـ أـنـ يـتأـثـرـ الـأـدـبـ وـ الـعـلـمـ بـهـذـاـ القـلـقـ وـ الـاضـطـرـابـ ،ـ وـ كـيـفـ يـزـدـهـرـ الـأـدـبـ وـ الـعـلـمـ فـيـ جـوـ مـتـقـلـبـ غـيرـ مـأـمـونـ العـاقـبـةـ ؟ـ

على أنـ الـمـلـوـكـ وـ الـأـمـرـاءـ كـانـواـ يـنـتـهـزـونـ فـرـصـ السـلـمـ عـلـىـ قـلـتـهاـ وـ قـصـرـ هـاـ،ـ فـيـقـرـبـوـنـ إـلـيـهـمـ الـعـلـمـاءـ وـ الـأـدـبـاءـ ،ـ وـ كـانـ بـنـوـ حـفـصـ وـ بـنـوـ مـرـيـنـ مـلـاذـ رـجـالـ

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ٥٨ نشره محمد بن تاویت سنة ١٩٥١ وسأعتمد على هذا المطبوع فيما يأتى بدلا من المخطوط . وابن خلدون محمد عبد الله عنان ٢٤ .

الفكر والأدب ، يظلونهم برعايتهم ، ويحتفون بهم ، ويولونهم المناصب
الرفيعة .

يقول ابن خلدون « ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع
من منزلة أبْنَى الإمام : أبي زيد وأبْنَى موسى ، واحتضنها بالشوري في
بلدهما ، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويحرى لهم الأرزاق ،
ويعمر بهم مجلسه . . . ثم أدى ابن عبد النور ، وقرب مجلسه ، وولاه قضاء
عسكره » ^(١) .

وكان غر ناطة حالية بكثير من العلماء والأدباء ، لكن الأندلس لم
تنسخ لعلمائها وأدبائها ، ولا سيما بعد أن طغت مملكة قشتالة النصرانية على
أطراف المملكة الإسلامية ، واستولت على أكثر ثغورها وقواعدها ،
فرحل كثير من علماء الأندلس وأدبائه إلى المغرب ، فأثرت بالثقافة والأدب
في الوقت الذي زلزلت فيه من الحروب والفتنة .

على أن الأدب لم يبلغ في المغرب ما بلغ في المشرق أو في الأندلس من
نضج وسمو ، ولعل مرد ذلك إلى أن العجمة كانت متصلة في البربر ، وأن
دولهم لم تعم طويلا ، فترعى العلم والأدب ، بل إنها كانت لا تستقر .
لذلك كان الملوك والأمراء في شغل بحروهم عن تشجيع العلماء والأدباء ،
وكان الأدباء والعلماء غير مطمئنين على حياتهم وأرزاقهم فلا ينتجون . ثم
إن العرب كانوا قلة في بلاد المغرب ، ولم يكثروا كما كثروا في مصر
والأندلس . ولاشك أن كثراهم ، وزراعة قبائلهم إلى بعض البلاد المفتوحة
كان يفسح المجال للغة والأدب . على أن البربر قوم شداد المراس ، أقويام

الشكيمة ، لدُّ في عدائهم للعرب الفاتحين ، فلم تُشرَبْ قلوبهم محبة اللغة العربية . ولقد يعزز ذلك أن ابن خلدون نفسه كثيراً ما حمل على العرب ، وتنقص من أقدارهم ، واتهمهم بتأصلهم الجمجمية ، وبخضنة الحضارة . وإن كانت أحكامه هذه جائزة لا تنطبق على العرب ، وإنما تنطبق على الأعراب في عهده .

النثر في عصر ابن خلدون

حينما نتحدث عن النثر أو الشعر في المغرب أو في الأندلس لا بد من أن نتعرف حالها في المشرق ، لأن المغاربة والأندلسيين كانوا يتلقون على المشارقة ، ويتأسون بهم ، ويتأثرون طرائقهم في الكتابة والشعر ، وكان المغاربة يقتدون بالأندلسيين كما يقتدون بالمشارقة .

١ - ولا عجب في ذلك ، فإن العرب نزحوا إلى الأندلس وانبوا في أرجاءها ، من كل قبيلة وعشيرة ، عدنانيين وقططانيين . فن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بني حمود ، ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومي الشاعر ، والوزير ابن زيدون ، ومنهم الفهريون الذين منهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي انتزع الحكم منه عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

أما القحطانيون فكانوا أكثر انتشاراً ، ومن قبائلهم كهلان قبيلة محمد بن هاني الشاعر ، ومنها الأزد الذين وفدو على الأندلس جماعات ، ومن اليمنيين أيضاً الجد الأول لعبد الرحمن بن خلدون « ونسينا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب . قال ابن حزم : ويدرك

بنو خلدون الإشبيليون من ولده ، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف
بن خلدون بن عثمان بن وائل بن حجر ، ^(١) .

٢ - وقد وفد إلى الأندلس كثير من العلماء والأدباء ، فوجدوا هناك
ترحيباً وتكريماً وإغاثة ، ففاضت ثقافتهم ، وفرضوا الشعر وكتبوا النثر ،
مصورين ما يرون من مشاهد في أسلوب عربي ، حرصاً على اللغة القومية ،
معززين بعاصيها الجيد ، مقيدين بطرائق التعبير التي جرى عليها أسلافهم ،
ويجري إليها معاصر وهم في الشرق . وكان العلماء يفدون من الشرق إلى
المغرب ، ويقبلون من المغرب إلى المشرق ، حتى لا يكاد الطريق يخلو من
قدم تسمى للرحلة في سبيل التعليم أو طلب العلم .

٣ - على أن الخلفاء ثم الملوك في الأندلس كانوا يرون في المشرق
مثلاً أعلى جديراً بالاحتذاء ، فشلاً قدم زرِباب المغني إلى الأندلس بأمر
الحكم بن هشام ، وأخبر بوفاته ٥٢٠هـ قبل أن يبلغ الأندلس ، فهم بالرجوع ،
بغاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يستدعيه ويرحب به ، فدخل
الأندلس هو وأهله وأكرمه الخليفة أيما إكرام ، وتلذذ عليه كثير من
الرجال والنساء . والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٥٣٦) بعث إلى أبي الفرج
الأصبهاني بألف دينار من الذهب ، ليرسل إليه نسخة من كتاب «الأغانى»
قبل أن يظهر في العراق .

٤ - ولقد حصرهم في محاكاة الشرق أنهم لم يحفلوا أول الأمر بما كان
بلاد الأندلس من ثقافة لا تبنة ، ولم يحفلوا بنقل شيء من فلسفة اليونان
وعلومهم ، لأنهم يريدون أن تكون دولتهم عربية ، ينافسون بعروتها

(١) التعريف بابن خلدون ٣

دولة العرب الفارسية في بغداد ، حتى لقد كان الطلاب الذين يرحلون إلى المشرق ليتعلموا يكتفون بالطلب على علماء الدين واللغة ، مثل يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى مكة ، وأخذ الفقه عن الإمام مالك ، ومثل أبي الخطاب عمر بن الحسن الأندلسي ، فقد رحل إلى شمال إفريقيا ومصر والشام والعراق ، وسمع بغداد وبواسطه وخراسان ، وكان همه كله مقصوراً على الأخذ عن أئمة الحديث ^(١) ، وقد رحل ابن مالك الأندلسي إلى دمشق وسمع الحديث والنحو واللغة بها ^(٢) .

وكان العلماء الذين يستقدمون من المشرق أدباء أو لغوين مثل أبي القالي ، استقدمه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتربيته ابنه الحكيم وتعليمه .

الطريقة الشائعة في عصره

١ - كانت الطريقة الشائعة في عصره هي طريقة القاضي الفاضل (المتوفى ٥٩٦ھ) فقد سيطرت على كتاب مصر والأندلس والمغرب . وهي كما نعلم مؤسسة على طريقة ابن العميد ، وتزيد عليها المبالغة في الزينة ، من سجع ملائم ، أكثره متكلف ، في جمل طوال ، وتورية ، وجناس ، وطباق ، وتوبيخ ، واقتباس ، وتضمين . وقد اعتسف بهذه المحسنات في نثره وفى شعره . وكان تلاميذه والمتأثرون بطريقته من بعده أقل منه اطلاعاً ، وأقصر باعاً ، فهبطوا بتتكلفهم هبوطاً شنيعاً . وربما سولت لبعضهم نفسه أن يبن طريقة القاضي الفاضل بخشد البديع ، واستكراه الحلى اللفظية ، فحملوا نثرهم أثقالاً ليست من الآلى بل من الواقع ، وتحت هذه الأثقال لفظت الأفكار أنفاسها ، ونامت الأساليب بضعفها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ٤٢٧

(٢) نفح الطيب ٤٨٢ / ١

(م ٩ - ابن خلدون)

وكان الدافع إلى ذلك سيطرة غريزة التقليد على الكتاب ، وظنهم أن طريقة القاضي الفاضل أسمى ما انتهت إليه أقلام المنشدين ، ثم إنهم كانوا فقراء في الثقافة عامة والفلسفة خاصة ، فلا تختلج في نفوسهم معان سامية ، وأفكار راقية ، فعمدوا إلى تمويه هذا الضعف بستار وطلاء من الزخرف ، وربما حفظهم إلى ذلك أيضاً أن نقاد هذا العصر كانوا كــفين بالطريقة الفاضلية ، لا ينال إعجابهم غيرها ، فخضع الكتاب للنقاد ، وجاروهم في إعجابهم ، وأنشتوا على الغرار الذي يرتضونه ، ولسنا ننتظر من كتاب هذا العصر أن يخرجوا على نقاده ، ويثوروا على الطريقة العقيمة التي يكلفونهم احتذاءها ، لأن عصور الضعف لا تجود ببعقرى إلا نادراً . وقد كان هذا العبقري الجرىء ابن خلدون .

ومن أمثلة نثر القاضي الفاضل ما كتبه لتوليه قائد من أرباب السيف على لسان السلطان : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يصطنع من يرتضيه لتأليف عبيده وضمّهم ، ويستوقفه للنظر في تقديم رجال مملكته وزمامهم ، ويختار من يكتبه لإحراز مدحهم ، بالبعد من موجبات ذمهم ، ولا يؤهل لذلك إلا من توسل بالغناه ، وقرب ، واستقل بالأعيان وتدرب ، وأطلق حدّه التوفيق فضى وتدرب ، وأودع الإحسان فما زايل محله ولا تغرب ، ولا يمس الأمور ملابسة من فطن وجرب ، وقد أيد الله دولته بفتاه وأمينه ، وعقده وثينه ، السيد الأجل الذي غدت آراؤه للمصالحة كوافل ، وأذكى للتدبر عيون حزم غير ملتفتات عنه ولا غوافل ، وأطلع من السعد نحو ما غير غوارب ولا أوافل ، وقام بفرائض النصائح قيام من لم يجوز فيها رخص

النوافل ، وتحديث مفعاله رماحه في المحافل ، فاراعت المحافل ...^(١) وفي هذا المثال - الذي لم أتخيره - سجع ملتزم ، وجمل غير منسجمة ، بعضها طويل وبعضها قصير ، وجناس (ضمهم ، وزمهم ، وذمهم) و (تدريب ، وتدريب ، وتغرب) واستخدام للمصطلحات (رخص النوافل) .

٢ - وقد جرى في مضمار هذه الطريقة لسان الدين بن الخطيب (٧١٢ - ٧٧٦) وإذا كانت طريقة ابن العميد قد استمدت نفوذها في الشرق والغرب من مكانته السياسية وولايته الوزارة ، ثم إذا كانت طريقة الفاضل قد ذاعت وسيطرت على الكتاب من بعده ، لأنّه كان وزيراً للصلاح الدين ونائباً عنه في غيابه ، فإن لسان الدين بن الخطيب كان وزيراً لبني الأحرر ، وصاحب سلطان عظيم ، ومكانة رفيعة استمدّها من الوزارة ومن علمه وأطلاعه .

وأدبه لا يختلف عن أدب ابن العميد والقاضي الفاضل ، بل يزيد أنه حافل بالسجع ، وبالإطناب ، وبالتطويل في أكثر الأحيان إلى درجة تبعث الملل ، كأن مقياس الجودة في نظره الإكثار ، ولا شك أن الإطالة أشد إضجاعاً من السجع المتلكف ، فإذا اجتمعوا معاً فقد تضافرا على الإملال ، وربما كان الباعث له على الإطناب رغبته في تكرير المعنى الواحد في عبارات شتى كما كان يفعل القاضي الفاضل .

على أن كتابته مقللة بالخل للفظية ، وبألقاب التعظيم والتجليل . وهو في كثير من رسائله يدُوف الشعر بالنشر ، كقوله في تعزية بعض الرؤساء عن أخيه :

أعذك أن يُلْفِي حسودك شامتا
يليق بعزمك أعجز ناعتنا
وسرحتك الشاء طابت منابتا
 وأنطق منه الشجو من كان صامتا
وكيف ترجي أن تصاحب ماتنا
إذا لم نكن بالحزن نرجع فامتنا
وأتصل بي إليها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ، ما جنته على
عليانك الأيام ، واقتضته محن الردى بعد أن طال الخيام^(١) ، وما استأثرت
به الحمام ، فلم يُغْنِ الدفاع ولا نفع الذمام ، من وفاة صنوكم الكريم الصفات ،
وهلال وسطى الأسلام ، وبدر الأخلاق ، وبغير الأملاك ، وأنا لدیغ
صل الفراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجرح سهم البین ، وبمحاري
العيون الجارية بدموع العین ، لفقد أنيس سهل على مضمض النكبة ، ونحي
ليث الخطب عن فريستي بعد صدق الوئمة ، وآنسني في الاغتراب ، وصحبني
إلى منقطع التراب ، وكفل أصغرى خير الكفالة ، وعاملني من حسن
العشرة بما سجل عقد الوكالة . انتزعه الدهر من يدي حيث لا أهل ولا
وطن ، والاغتراب قد ألقى بعَطَن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر
وما بطن ، ورأيت من تطارح الأصغر على شلو الغريب ، النازح عن
النسيب والقريب ، ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحا ، ومدفنا صريحا ،

(١) خيم بالمكان : أقام ، والخيام . جمع خيمة ، ومصدر خام أي نكس وجبن ، ولعله يريد هذا المعنى الأخير وهو أن الموت اختطف المتوفى بعد تردد

لأخذع من يرى أنه لم يزل مقينا لديه ، وأن ظل شفقته منسحب عليه ،
فاعينا مصابي عند ذلك الفرح ، وأعظم الظلام البرح ، ونكا القرح القرح ،
إذا كان ركنا قد بنته لي يد معرفتك ، ومتصفا في البر في بكرٍ صفتكم ،
فواهفا عليه من حسام ، وعز سام ، وأياد جسام ، وشهرة بين حام وسام ،
أى جمال خلق ، ووجه للقادص طلق ، وشيم تطمح للمعالى بحق .

ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولى وأذير ،
 واستنجدت الدمع فغضب ، واستصرخت البكاء فأنسكر مارواي واقتضب ،
 وهى الأيام أى شامخ لم تهد ، أو حديثم تبله وإن طالت المدة ، فرقـت
 بين التيجان والمفارق ، والحدود والتارق ، والطلى والعقود ، والكأس
 وابنة العنقود . . . فأنا يا سيدى أقيم رسم التعزية ، وإن بؤت بضاعـف
 المرزىـة ، ولا عتب على القدر ، في الورـد من الأمن والصدـر . . .

وأنا وإن أخرت فرض بيـعتك لما خصـنى من المصـاب ، ونالـى من
الأوصـاب ، ونزلـى من جـور الزـمان الغـصاب ، من يـقبل عـذرـه الـكرم ،
 ويسـعـه الـحرـم المحـترم . والله سبحانهـ الـكـفـيل لـسـيدـى وـعـمـادـى بـيقـاءـ يـكـفلـ به
 الأـبـنـاءـ وـأـبـنـاءـ الـأـبـنـاءـ ، ويـعـلى لـقـومـه رـتـبـ العـزـ سـاميـةـ الـبـنـاءـ . . . (١)

ومن رسائلـه إلى ابن خـالـدون ردـاـ على رسـالـةـ منه ، وقد قـربـ
 من غـرـنـاطـةـ :

حلـلتـ حلـولـ الغـيثـ فيـ الـبـلـدـ المـحـلـ علىـ الطـائـرـ المـيـمـونـ والـرـحـبـ والـسـهـلـ
 يـعـيـنـآ بـمـنـ تعـنـوـ الـوـجـوهـ لـوـجـهـهـ مـنـ الشـيـخـ وـالـطـفـلـ المـهـداـ وـالـكـهـلـ
 لـقـدـ نـشـأتـ عـنـدـىـ لـلـقـيـاـكـ غـبـطـةـ تـنـسـىـ اـغـبـاطـيـ بـالـشـيـةـ وـالـأـهـلـ

أقسمت بن حجت قريش لبيته ، وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ،
ونور ضربت الأمثال بمشكاهه وزيته ، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته
الأمنية السنية ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة ، بين رجع الشباب
يقطر ماء ، ويريف نماء ، ويغازل عيون الكواكب ، فضلا عن الكواكب ،
إشارة وإيحاء ، بحيث لا الوخط يلم بسياج لنته ، أو يقدح ذهالة في ظلمته ..
وزمانه روح وراح ، ومُعْدِي في النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورق
وجراح ، وانتحاب وافتراح ، وصدور ما بها إلا انشرح ، ومسرات
تردها أفراح ، وبين قدومك خليع الرسن ، ممتعًا والحمد لله باليقظة والوسن ،
ممتعًا بظرف المعارف ، مالئًا أكف الصيارات ، ماحيًا بأنوار البراهين شبه
الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن رافقني ز منه ، وأعياني ث منه ، وأجادت
سحائب دمعي د منه ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملكتني أزمة
آرابي ، وغبطني بمني وترابي ، ومؤلف أتراب ... ^(١) .

في هذين النوذجين طابع لسان الدين بن الخطيب ، من سجع
مستكره ، وجمل بعضها طويل ليهد للسجعة ، وبعضها قصير لأن السجعة
واتت ، وإطالة ملة بتكرير المعنى الواحد في قوله من الألفاظ لا فضل
للاحقة على سابقتها ، ومحسنات بديعية ، وتفاهة في أكثر المعاني ، وضعف
في الخيال مثل (قدومك خليع الرسن) مثل (رقى جنون اغترابي) .

ولقد أعجب معاصروه بطريقته ، فتصدر زعامة الأدباء في عصره ،
فأرَّخ المقرى له ولاساتذته وتلاميذه تاريخا مفصلا في كتابه ، بل سماه
(نفح الطيب) ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين
بن الخطيب) ، وقال في مقدمة المجزم الرابع إنه (في إيراد جملة من نثره الذي

عقب أربعين البلاغة من نفحاته ، ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته
وصفاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ... وهذا أنا أذكر ما حضرني
الآن من بنات أفكار لسان الدين ، التي هي بالمحاسن متقدمة ، وللبدائع متuelle ،
فأقول : أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك
أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلون ، وسوق
دررهم النفيسة التي يزینون بها صدور طرسهم ويحملون ... ^(١)

والحق إن أدب لسان الدين شعراً ونثراً لا يليغان من الجودة إلى الحد
الذى بوأه المكانة الأدبية الرفيعة في عصره . ولعل الوزارة والسياسة
والرياسة كان لها أثراً في هذه المكانة .

على أنه كتب في موضوعات علمية وتاريخية ، وأسلوبه فيها أحياناً
مرسل ، وأحياناً أسلوب مسجوع مطول ، كأن قدر الكتابة كان يقاس
في نظره بالإكثار لا بالإجادة . ومن أسلوبه المرسل ما جاء في ترجمته
لابن خلدون : « وأما المترجم فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم
الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ، ظاهر الحياة ، أصيل المجد ، وقوى
المجلس ، خاصي الزي ، عالي الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادرة ، قوى
الجأش ، طامح لفنون الرياسة ، حاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ،
متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط
مغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ... » ^(٢)

(١) نفح الطيب ٤ / ٢

(٢) نفح الطيب ٤ / ٦

صلة ابن هارون بسان الدين

أسلفت في أول الكتاب أن لسان الدين بن الخطيب كتب في (الإحاطة) ترجمة مفصلة لابن خلدون ، وقال إنه شرع في هذه الأيام يشرح أرجازى في الفقه شرعاً لا غاية بعده . وقد نقل المقرى هذه الترجمة كاملة في كتابه *فتح الطيب* ^(١) .

وقد ذكر لسان الدين في (الإحاطة) بضعة رسائل بعث بها إلى صديقه ابن خلدون ، وذكر ابن خلدون في (التعريف) بضعة رسائل بيته وبين ابن الخطيب ^(٢) .

وكان ابن خلدون معجباً بصديقه ، مشهوراً بالثناء عليه ، يدل على ذلك قول المقرى ، وكان ابن خلدون كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب ، ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم البااعونى الشامى . . . « و كنت أكثر الاجتماع به - ابن خلدون - بالقاهرة المحرورة ، للهودة الحاصلة بينه وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونشره ما يشغف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الآطاع ، ^(٣) » .

ويقول ابن خلدون « ومن حاسن الموشحات للمتآخرين موشحة ابن سهل ، وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبدالله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره ، ^(٤) » .

(١) *فتح الطيب* ٤ / ١٧ - ٦

(٢) التعريف ١٢٨، ١٢٣، ١١٥، ١٠٣، ٩٢، ٩١، ٨٢

(٣) *فتح الطيب* ٤ / ١٧

٥٢٥ (٤) المقدمة

ويذكر ابن خلدون في التعريف صلته بلسان الدين ، فقد كتب إليه لسان الدين لما فر من الأندلس وقدم على سلطان تِلمسان ^(١) ، ورد عليه ابن خلدون ردا يبنيه عن موعدة وإعزاز ^(٢) ، ويقول في موضع آخر « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنشر والمعارف والأدب ، لا يُسأجل مدها ، ولا يُمْتَدَى بمثل هداه ^(٣) »

ويقول إن ابن الخطيب بعث إليه من عبشه مستصرخاً ومتوسلاً ،
خاطب في شأنه أهل الدولة ، فلم تنجح وساطته ^(٤) .

ويقول إنه شكا إليه تخلفه في الشعر ^(٥)

دراساته الأدبية

(١) تحدث ابن خلدون عن دراسته كاسبق في أول الكتاب ، وعرفنا أنه قرأ القرآن الكريم على إمام القراءات السبع ، وبعد أن استظر القرآن الكريم قرأه على أستاذه بالقراءات السبع إفراداً وجمعياً في إحدى وعشرين ختمة ... وقرأ قصيدة الشاطي: اللامية في القراءات والرأي في الرسم ، وكتاب التقى لاحاديث الموطأ لابن عبد البر ، ودرس عليه كتاب جمة ، مثل كتاب التسهيل لابن مالك ، وختصر ابن الحاجب في الفقه ، وفي خلال ذلك تعلم صناعة العربية على والده ، وعلى علماء تونس ، وحفظ كتاب الأشعار الستة ، والخمسة للأعلم الشنتمرى ، وشعر أبي تمام ، وشعر

(٢) التعريف ١٤٠

(٤) التعريف ٢٢٧

(١) التعريف ١٣٩

(٣) التعريف ١٥٥

(٥) المقدمة ٥١٠

المتنبي ، وكثيراً من أشعار الأغاني . ثم درس الحديث والفقـه والعلوم

العقلية إلخ^(١)

٢ - وهو يصرنا بدراسة وتمكـنه من اللغة والأدب ، حين يتحدث
في المقدمة عن تعلم اللغة الفصحى ، وضرورة التطبيق في القواعد^(٢) ،
والحاجة إلى حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما خلف العرب
من رائع الشعر والنثر ، ثم حين يتحدث عن الذوق ، وعن منهج التعليم في
البلاد الإسلامية ، الخ كـما سبق في منهج التعليم ونظمـه .

٣ - على أن الفصول القيمة التي قصرـها على دراسة العلوم اللسانية
ثانية بـأرائه ونظـاته ، دالة على بـصرـه بـنشأة هذه العـلوم وتطورـها ، ومعرفـته
بـأمهـات مـراجـعـها ، وأـشهرـ المؤـلفـينـ فيها ، فـشـلا يـتـحدـثـ في عـلمـ التـحوـنـ عنـ الـخـيلـ
وسـيـبـويـهـ وـابـنـ مـالـكـ وـالـزـخـنـشـرـيـ وـابـنـ الـحـاجـبـ وـابـنـ هـشـامـ^(٣) ، وـيـتـحدـثـ
في عـلمـ الـلـغـةـ عـرـقـ الـخـيلـ وـالـزـيـدـيـ وـالـزـخـنـشـرـيـ وـالـثـعـالـبـيـ وـابـنـ السـكـيـتـ
وـثـعـلـبـ^(٤) ، وـيـتـحدـثـ في عـلمـ الـبـيـانـ عنـ جـعـفـرـ بـنـ يـحـيـيـ وـالـجـاحـظـ وـقـدـامـةـ
وـالـسـكـاكـيـ ، وـالـقـزوـيـيـ ، وـيـقـرـرـ أنـ الـمـارـاقـةـ فيـ عـلـومـ الـبـلـاغـةـ أـنـضـجـ منـ
الـمـغـارـبـةـ ، لـأـنـهـمـ أـوـفـرـ عـمـراـنـاـ مـنـ الـمـغـارـبـةـ ، وـلـأـنـ الـعـجمـ فيـ الـمـشـرـقـ قدـأـسـهـمـواـ
فـيـ إـنـضـاجـ الـبـلـاغـةـ كـالـزـخـنـشـرـيـ فـيـ تـفـسـيرـهـ ، ثـمـ يـقـرـرـ أنـ الـمـغـارـبـةـ عـنـواـ بـالـبـدـيعـ
خـاصـةـ ، لـوـلـ عـهـمـ بـتـزـيـنـ الـأـلـفـاظـ ، وـلـسـهـولـةـ الـبـدـيعـ ، وـحـاجـةـ الـبـيـانـ وـالـبـلـاغـةـ
إـلـىـ دـقـةـ النـظـرـ . ثـمـ يـذـكـرـ اـبـنـ رـشـيقـ مـؤـلـفـ الـعـمـدةـ^(٥) .

ويـتـحدـثـ فيـ عـلـمـ الـأـدـبـ عنـ أـدـبـ الـكـاتـبـ لـابـنـ فـقـيـةـ ، وـالـكـاملـ لـلـبـرـدـ ،

(١) التـعرـيفـ ١٥ - ٥٥ (٢) المـقـدـمةـ ٤٨٩ ٤٩٤ ٤٨٣ (٣) المـقـدـمةـ

(٤) المـقـدـمةـ ٤٨٤ (٥) المـقـدـمةـ ٤٨٧

والبيان والتبيين للجاحظ ، والنواذر لابن على القالى ، ويقول إننا سمعنا من
شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول الأدب وأركانه هذه الكتب الأربع ،
وماسواها فتبع لها ، وفروع عنها^(١) . وفي موضوع آخر يتحدث عن كتاب
الأغاني^(٢) وعن العمدة لابن رشيق^(٣) ثم يتحدث بعد ذلك عن اللغة
الفصحي والمرانة عليها ، وعن الذوق ، وعن الشعر والنثر حديثاً ينم على
بصر واطلاع .

ما السبيل إلى إمداده اللغة والأدب في رأيه ؟

١ - رأى أن لغة الحديث في عصره غير الفصحي ، وأن الطريقة إلى
تعلم اللغة الفصحي حفظ النصوص البلية ، وهي القرآن الكريم والحديث
الشريف ، وما أثر عن البلوغ من شعر وكتب وخطب ، سواء كانوا قدماه
أم مولدين . وبكثرة المحفوظ ، تنشأ الملكة ، فيصير الشخص كأنه نشأ بين
العرب الفصحاء ، ثم ينميتها بالتعبير عمما يجد في نفسه من الأفكار ، وهو كلاماً
مرئى قلبه رسخت ملكته^(٤) .

وفي رأيه كما سبق أن دراسة النحو مجردأ من التطبيق ومن الأدب
لا تتجدد^(٥)

وقرر أنه لا بد من الذوق لمن يطمح إلى أن يكون أديباً ، ويفهم من
شرحه للذوق أنه الملكة التي رسخت بحفظ كلام العرب ومارسته ،
وتكرره على السمع ، والفتنة لخواص تراكيه ، حتى إن صاحب الذوق

(١) المقدمة ٤٨٨ (٢) المقدمة ٥٠٥ (٣) المقدمة ٥٠٥

(٤) المقدمة ٤٩٤ (٥) المقدمة ٤٩٣

إذا عرض عليه كلام خارج على الأسلوب العربي مجده ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك ، لأن الذوق أمر وجداني .

و واستعير لهذه الملكة عند ما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلاح عليه أهل صناعة البيان ، وهو موضوع لإدراك الطعوم ، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام ، كما هو محل لإدراك الطعوم ، استعير لها اسمه ، وأيضاً فهو وجداني للسان كأن الطعوم محسوسة له ، فقيل له ذوق ، ^(١) . ويرى أن الأعاجم الذين طرموا على اللغة العربية كالفرس والروم والترك بالشرق ، وكالبربر بالغرب لا يحصل لهم هذا الذوق ، لقصور حظهم في الملكة اللسانية العربية ، إلا إذا كان من باهم بين العرب الفصحاء كالزمخشري وسيبويه والفارسي ^(٢) .

٢ - وقسم الكلام العربي إلى شعر ونثر ، وعاد العروضيين في تعريف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، وعرفه بأنه الكلام البلige المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، المستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عمما قبله ، والجارى على أساليب العرب المخصوصة به ^(٣) .

وبهذا التعريف للشعر أدخل في أركانه الخيال ، وأخرج من الشعر الكلام الموزون المقفى الذي لا عاطفة فيه ولا خيال . أما النثر فهو كلام غير موزون ولا مقفى ^(٤) .

وكل منهما يشتمل على فنون ومذاهب في القول ، فالشعر يشتمل على

(٢) المقدمة ٤٩٧

(١) المقدمة ٤٩٦

(٤) المقدمة ٤٩٩

(٣) المقدمة ٥٠٤

الهجاء والمدح الخ ، والنثر بعضه مسجوع ، وبعضه مرسل ، والقرآن خارج عن الوصفين . ثم تكلم عن اختصاص الشعر بأنواع من فنون القول كالنسيب ، وعن اختصاص النثر بأنواع الخطاب^(١)

ثم تحدث عن طريقة تعلم الشعر ، والظروف المهيأة لقرضه ، وعن تنقيحه ، ونقده^(٢) . ونقل قصيدة لابن رشيق ، وشعرآ لغيره في الوصاية بالطريقة إلى ممارسته .

وذكر أن الشعر غير مقصور على اللسان العربي ، فقد كان في الفرس شعراء ، وفي اليونان شعراء ، ذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه^(٣) . وذكر كثيراً من قصائد المتأخرين ، ومن المؤشيات والأزجال .

ذرا ابن خلدون

موضوعاته :

وصل إلينا من مؤلفات ابن خلدون كتاب العبر ، ومقدمته ، وكتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، وبه بعض رسائل له .

أما المقدمة فقد تحدثت عن بعض موضوعاتها فيما سبق ، وهي كلها بحوث في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وأحوال الأمم ، من حضارة وبداوة ، وفي العلوم ونشأتها وأطوارها الخ . وقد اهتدى إلى كثير من علل الأحداث التي تناول المجتمعات ، وعرف ما بينها من التشابه والترابط ، فوضع لها

قوانين عامة ، وأقيسة مطردة ، لم يفطن لها بهذه الصورة الكاملة أحد من قبله ، بل لم يتبيّن صدقها ، وتسكّشف قيمتها إلا بعدة قرون .

وأما التاريخ فقد تناول فيه تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أمم المشرق ، وأفاض في تاريخ البربر في شمالي إفريقيا ، وغارات أعراب المشرق من سليم وجشم ورياح وهلال وزغبة على دولتي صنهاجة ، وأطراف عمالك الموحدين . وسلك في هذا التاريخ خطة مغایرة لخطة الطبرى وابن الأثير وابن مسکوبيه ، فبوب كتابه حسب الحوادث والدول لا حسب السنين ، على أن بعض المؤرخين سبقوه إلى هذه الطريقة ، كالمسعودي في كتابه مروج الذهب وكتابه التنبيه والإشراف ، واليعقوبى في تاريخه ، وابن الطقطقى في كتابه الفارى وكتابه الآداب السلطانية .

وأما التعرّيف بابن خلدون فهو قصة حياته إلى قبيل وفاته بعام واحد ، ذكر فيه أصله وأحداث أسرته ، وأحداثه هو ، وثقافته ، وأساتذته ، وتحدث عن صلته بـ لوك المغرب وأمرائه ، ونقلبه في قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وعن اعتقاله وتشريده ، ثم عن رحلته إلى الأندلس ، واتصاله بـ ملك غرناطة ووزيره لسان الدين بن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتالة ، وعن الجفوة التي عرضت بينه وبين ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، ثم عن عودته إلى تونس ، ثم رحلته إلى مصر وحياته فيها ، حتى

سنة ٥٨٠ هـ .

مصادفه :

١ - ترسّل في كتابه في عصر كان يترسم طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ، وكان حامل لواء هذه الطريقة في الأندلس لسان الدين

ابن الخطيب ، وكان ابن خلدون صديقا له ومعجبا به . فليس بغرير أن ينشأ ابن خلدون على هذه الطريقة ، وأن يترسّمها حينا من شبابه ، حتى اكتملت ملكته ، وتميزت شخصيته ، فظهر له أنها لا تصلح في الرسائل السلطانية ، وإن جرى معاصروه عليها ، فعدل عنها إلى النثر المرسل ، كما كان يكتب البلغاء الأولون ، كابن المقفع وأحمد بن يوسف والجاحظ ، وقد عاب طريقة معاصريه بقوله : « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور . من كثرة الأسجاع ، والتزام التقافية ، وتقديم النسيد بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنثور – إذا تأملته – من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلا في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها في المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي أرضاوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه ، وخصوصاً أهل المشرق ، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الففلجارية على هذا الأسلوب ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ؛ لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب ، وهذا الفن المنثور المقصى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية ، وخلط الجد باهزل ، أو الإطناب في الأوصاف ، وضرب الأمثال ، وكثرة التشبيهات والاستعارات . وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ، وبيانه . والمحمود في المخاطبات السلطانية انترسل ، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيح إلا في الأقل النادر ، وحيث ترسل الملكة إرسالا ، من غير تكلف له ، ثم إعطاء

الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام
أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة
أو كناية أو استعارة . . . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة
على ألسنتهم ، وقصورهم عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ،
فعجزوا عن الكلام المرسل ، بعد أمده في البلاغة ، ولوعوا بهذا المسجع
يلفكون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ،
ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البدعية ، ويغفلون
عما سوى ذلك . . . ^(١) .

فهو إذا يرى أن النثر المسجوع المحلي بالبدع لا يلائم الرسائل السلطانية ،
ويستدل على ذلك بأنه لا يطابق مقتضى الحال ، ويعامل لذلك بأن الكتاب
عجزة عن تحقيق البلاغة ، فيحاولون سترا عجزهم بزخارف من البدع .
وقد حقق الترسل في نثره السلطاني ، وفي كل ما كتب .

يقول عندما كتب للسلطان أبي سالم المربي : « واستعملني في كتابة سره ،
والترسيل عنه والإنشاء لخطاباته ، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ،
بدون أن يشاركتني أحد من يتحلى الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحاطها ،
وخفاء العالى منها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ،
وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة » ^(٢) .

٢ - وفي قليل من الأحيان كان يسجع مثل كتاب عصره ، وذلك حين
يكتب لهم ، يريد بذلك بجاملتهم ومشاركتهم في طريقتهم التي يؤثرون ، ويريد

(١) المقدمة ٥٠٠

(٢) التعريف ٧٠

أن يظهر قدرته على مزاولته ما يزاولون . ولتكنه مع هذا اقتضى في سجنه ،
ولم يتكلف البديع ولا سيما التورية والتوجيه كما تكلفهم لسان الدين وغيره .
من ذلك قوله في رسالته إلى لسان الدين : يا سيدى ، ونعم الذخر
الأبدى ، والعروة الوثقى التي اتعلقتها يدى ، أسلم عليكم سلام القديم ،
على المخدوم ، والخضوع للملك المتبع . لا بل أحبيكم تحية المشوق ،
للمشوق ، والمدلج ، للصباح المتلجلج ، وأقر ما أتتم أعلم بصحيف عقدي
فيه من حب لكم ، ومعرفتي بمقداركم ، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم
والثناء عليكم ، والإشادة في الآفاق بمناقبكم ، ديننا معروفاً وسجينة راسخة ،
يعلم الله وكفى به شهيدآ ... فلا تظنوا في الظنون ، ولا تصدقوا في
التوهمات ، فأنا من علمتم صداقه ، وسذاجة ، وخلوصاً واتفاقاً ظاهر
وباطن ، أثبت الناس عهداً ، وأحفظهم غياً ، وأعرفهم بوزن الإخوان ،
ومزايا الفضلاء ... فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول ، على
أحسن الوجوه ، وأجمل الخارج ، الحميد العواقب في الدنيا والدين ، العائدة
الأيام ، بحسن المال ، في المخالف من أهل وولد ومتاع وأثر ، بعد أن رضتم
جموع الأيام وتوقفتم قلل العز ، وقد تم الدنيا بحذافيرها ، وأخذتم بأفاق السماء
على أهلها . والله يلحفكم جميعاً رداء العافية والستر ، ويحفظ عليكم ما أسبغ
من نعمته ، ويجربكم على عوائد لطفه وعنايته .^(١)

ومن ذلك قوله في افتتاح المقدمة : الحمد لله الذي له العزة والجبروت ،
وبيده الملك والملكون ، وله الأسماء الحسنى والنعوت ، العالم فلا يعزب
عنه ماظهره النجوى أو يخفيه السكوت ، القادر فلا يعجزه شيء في السموات

(١) التعريف ١٤٠ - ١٤٧

والارض ولا يفوت ، أنسانا من الأرض نسما ، واستعمرنا فيها أجيالا وأعما ، ويسّر لنا منها أرزاقا وقسما ،^(١) لكنه بعد هذه الخطبة عاد إلى الترسّل في المقدمة كلها .

٣ - يقسم أسلوبه في الغالب بالجزالة والقوة ، وبخاصة إذا صدر عن عاطفة ، أو كان دفاعا عن فكرة ، من ذلك قوله في الدفاع عن العباة وهارون الرشيد « ومن الحكايات المدخلة للمؤرخين ما ينقولونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباة أخته مع جعفر بن يحيى ابن خالد مولاه ، وأن العباة تحيلت عليه في التهاب الخلوة به ، لما شغفها من حبه ، حتى واقعها في حالة سكر ، فحملت ، وَوُشِّيَ بذلك للرشيد ، فاستغصّب . وهيّات ذلك من منصب العباة في دينها وأبويهما وجلاهما ، وأئمّا بنت عبد الله بن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ، والعباة بنت محمد المهدى بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنة خليفة ، أخت خليفة ، محفوظة بالملك العزيز والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول وعمومته ، وإقامة الملة ونور الوحي ، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد بيداؤة العروبية وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من يديها ؟ أو كيف تلحم نفسها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العرب بموتها من موالي العجم ؟ أبلغك جده من الفرس ؟ أم بولاء جدها من عمومه

الرسول وأشراف قريش؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم، على بعد همتها، وعظم آبائهما؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف، وقام العباسة بابنة ملك من عظام ملوك زمانه لاستنكره لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره، وله في تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نسب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتاجنهم أموال الجباية . . .^(١)

٤ - وهو يؤثر الترسل الخالي من الجزالة حين يشرح قضية علمية لا عاطفة تزجها، ولا حماسة تلابسها، مثل قوله : « الملك منصب طبيعي للإنسان ، لأننا قد يدنا أن البشر لا يمكن حياتهم وجودهم إلا بمجتمعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم ، وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه ، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان ، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ، ومقتضى القوة البشرية ، فيقع التنازع المفضي إلى المقابلة ، وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفو من . . . فاستحال بقاوئهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع ، وهو الحاكم عليهم »^(٢)

٥ - وإليه يرجع الفضل في وضع كثير من المصطلحات التي جرت على الأقلام والألسن من بعده ، مثل : العمران البشري ، الاجتماع الإنساني ، العمران البدوي ، الأمم الوحشية ، الملكة ، الغاية التي تجري إليها العص الملك . المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب . الخدمة ليست من الطبيعى ، الخ .

٦ - على أن اللغة واته ، وخضعت له ، فطوعها للتعبير عن الأفكار والمعانى الدقيقة ، فى أصول الاجتماع . وأثار البيئة فى الجسم والعقل والخلق ، وأحوال الحضر والبدو ؛ وقيام الدول وقوتها ، وضعفها وسقوطها الخ .
قوله : إن الدولة المستجدة إنما تستوى على الدولة المستقرة بالطاولة لا بالمناجزة ^(١) قوله : إن المتمولين من أهل الأمصار فى حاجة إلى الجاه واللدافعه ^(٢) . قوله : إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره . وإنها مؤذنة بفساده ^(٣) . قوله : إن السكوب هو قيمة الأعمال البشرية ^(٤) .

٧ - وكان أحيانا يخالف قوانين الصرف ، ويخرج على اللغة ، مثل إدخال الواو في خبر لا ، فيقول : لا بد وأن . وجعله الخبر أو جواب الشرط استثناء أو استدراكا ، مثل : إنه وإن كان كذا إلا أنه أو لكنه . واستعماله الفعل تعود متعديا بعلى . ومثل استعماله كلية الجيل كثيرا للدلالة على القرن أو الجنس من الناس ، وهو في اللغة الطبقة المتعاصرة في حقبة واحدة ، واستعماله المنحال إسم آلة لرفع الأجسام ، وجمعه العصبية على عصائب ، والصناعة على صنائع ، وكلمة تفتقوا بمعنى افتقدوا .

٨ - وأحيانا يطيل الجملة ، ويدخل فيها جملة أخرى ، حتى يتبيّس المعنى ، ويصلح الأسلوب لتأويلاً شتى ، وأحيانا يكرر كلمات خاصة لا داعى لذكرها ، مثل قوله : وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التَّوَبَذِي — في بعض النسخ التَّوَزُّرِي نسبة إلى مدينة توزر في جنوب تونس — عميد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك ،

(١) المقدمة ٢٥٠ (٢) المقدمة ٣٠٩

(٣) المقدمة ٣١٢ (٤) المقدمة ٣١٩

وزعم أنه الفاطمي المنتظر ، تلييسا على العامة هنالك ، بما ملأ قلوبهم من
الحدثان بانتظاره هنالك ^(١) فكرر كلية هنالك ثلاث مرات .

ومثل قوله : « إن عصابة الدولة وقومها القائمين بها المهدىين لها لابد
من توزيعهم حصراً على المالك والشغور التي تصير إليهم ، ويستمدون عليها
لحمايتها من العدو ، وإمساك أحكام الدولة فيها من جبائية وردفع وغير ذلك ،
إذا توفرت العصابات كلها على الشغور والمالك فلا بد من نقاد عددها ...
وما كانت العصابة موفورة ، ولم ينفذ عددها في توزيع الخصص على
الشغور والنواحي بقى في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية ، حتى ينفسح
نطاقها إلى غايتها ، والعلة الطبيعية في ذلك هي أن قوة العصبية من سائر القوى
الطبيعية ، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها » ^(٢)

ولقد يكون مرد ما في أسلوبه من هنات ، وما فيه من تداخل إلى
نشأته البربرية ، وإلى أن اللغة كانت في عهده غير قوية ، سواء في الأندلس
أم في المغرب .. وقد سبق أنه ذهب إلى أن الملكة الأولى للأعاجم تحول
بيتهم وبين إجاده الفصحى ، إلا إذا نشروا في بيته تأخذ نفسها بالفصاحة
وسلامة العبارة .

أثره فيمن بعده

أسلفت أن طريقة ابن خلدون في البحث ومعالجة الموضوعات قد
انتقلت إلى تلميذه المقرizi (٥٨٤٥) ، وقد ظهر هذا الأثر في أسلوبه وتفكيره
وطريقة عرضه لما يتناول في كتبه السخيرة ، وكان المقرizi معجبا

بابن خلدون ومقدمته ، ورأى أنها مبتكرة لم تسبق ، ولم تجد العقول بمثلها ،
كما أسفلت في حياة ابن خلدون ^(١) .

وقد تعلمذ عليه وتأثر بآرائه الحافظ بن حجر العسقلاني المحدث والمؤرخ
(٥٨٥٢) . وتأثر بآرائه السحاوي ، وظهر تأثيره في عدة فصول من كتابه
(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

ونحا القلقشندي (٥٨٢١) نحوه ، ونقل عنه فصولاً في كتابه صبح
الأعشى . ثم اعتمد كثير من العلماء والمؤرخين للحركة العلمية والأدبية على
مقدمة ابن خلدون .

وفي مطلع العصر الحديث كان أثر مقدمة ابن خلدون عظيماً في التراث
العربي ، لأن أسلوبها كان قدوة الكتاب في الأدب والسياسة والاجتماع ،
وقد حببه إليهم ترسله ، وطوعاعيته ، وخلوه من تكلف السجع والبديع ،
ومرونته وإتساعه للتغيير عن المعانى التي تحول بالنفس ، وللترجمة من
اللغات الأخرى . ومن الإنصاف أن نذكر أن كتاب كلية ودمنة لابن المقفع
كان له نصيب أيضاً .

ومنذ نصف قرن تقريباً بدأت المطابع تكثر من طبع الكتب
اللغوية والأدبية ، وأقبل المثقفون على اقتنائها وقرائتها ، فشاركت مقدمة
ابن خلدون في تأثيرها ، وتعاونت كلها على السمو بالعبارة ، إلى حد أن
كثيراً من كتاب العصر الحاضر لا يقلون بلاغة عن أمراء البيان في العصر
العباسي الأول .

شہـ حـرـة

مارس ابن خلدون الشعر كـ مارس الكتابة ، يقول : « ثم أخذت نفسي بالشعر ، فاثنال على منه بحور ، توسيط بين الإجادـة والقصـور »^(١) فهو يحس أن شعره لم يبلغ الجودـة ، ويـحار في تعـيل ذلك فيـقول « ذاكرـت يومـا صاحـبـنا أبا عبد الله بن الخطـيب وزـيرـ المـلـوـكـ بالـأـنـدـلـسـ منـ بـنـيـ الأـحـمـرـ ، وـكانـ الصـدرـ المـقـدـمـ فـيـ الشـعـرـ وـالـكـتـابـةـ ، فـقـلـتـ لـهـ : أـجـدـ اـسـتصـعاـبـاـ عـلـىـ فـيـ نـظـمـ الشـعـرـ مـتـىـ رـمـتـهـ ، مـعـ بـصـرـىـ بـهـ ، وـحـفـظـ لـلـجـيدـ مـنـ الـكـلـامـ ، مـنـ الـقـرـآنـ وـالـحـدـيـثـ ، وـفـنـونـ مـنـ كـلـامـ الـعـربـ ، وـإـنـ كـانـ مـخـفـوظـ قـلـيلاـ . وـإـنـماـ أـتـيـتـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ مـنـ قـبـلـ ماـ حـصـلـ فـيـ حـفـظـ مـنـ الـأـشـعـارـ الـعـلـمـيـةـ وـالـقـوـانـينـ التـالـيفـيـةـ ، فـإـنـ حـفـظـتـ قـصـيـدـتـ الشـاطـيـ السـكـبـرـيـ وـالـصـغـرـيـ فـيـ الـقـرـاءـاتـ ، وـتـدـارـسـتـ كـتـابـيـ ابنـ الـحـاجـبـ فـيـ الـفـقـهـ وـالـأـصـوـلـ ، وـجـمـلـ الـخـوـنجـيـ فـيـ الـمـنـطـقـ ، وـبعـضـ كـتـابـ التـسـهـيلـ ، وـكـثـيرـاـ مـنـ قـوـانـينـ الـتـعـلـيمـ فـيـ الـمـجـالـسـ ، فـامـتـلـأـ مـخـفـوظـيـ مـنـ ذـلـكـ ، وـمـخـدـشـ وـجـهـ الـمـلـكـةـ الـتـيـ اـسـتـعـدـدـتـ لهاـ بـالـمـخـفـوظـ الـجـيدـ مـنـ الـقـرـآنـ وـالـحـدـيـثـ وـكـلـامـ الـعـربـ ، فـعـاقـ الـقـرـيـحـةـ عـنـ بـلـوغـهاـ . فـنـظرـ إـلـىـ سـاعـةـ مـعـجـباـ ، ثـمـ قـالـ : اللـهـ أـنـتـ ، وـهـلـ يـقـولـ هـذـاـ إـلـاـ مـثـلـكـ ؟ـ^(٢)ـ .

عـلـىـ أـنـ لـسـانـ الدـيـنـ يـقـولـ فـيـ نـثـرـ ابنـ خـلـدونـ وـشـعـرـهـ : « وـأـمـاـ نـثـرـهـ وـسـلـطـانـيـاتـ الـسـجـعـيـةـ خـلـيـجـ بـلـاغـةـ ، وـرـيـاضـ فـنـونـ ، وـمـعـادـنـ إـبـدـاعـ ، يـفرـغـ عـنـهـ يـرـاعـهـ الـجـرـىـ مـشـبـهـ الـبـداـمـاتـ بـالـخـوـاتـمـ فـيـ نـداـوـةـ الـحـرـوفـ ، وـقـرـبـ الـعـهـدـ بـجـرـاـيـةـ الـمـدـادـ ، وـنـفـوذـ أـمـرـ الـقـرـيـحـةـ ، وـاـسـتـرـسـالـ الـطـبـعـ . وـأـمـانـظـمـهـ فـتـهـضـ

هذا العهد قدماً في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه ، فانتال عليه جوه ،
و هان عليه صعبه ، فأقى منه بكل غريبة . ثم ذكر خمس قصائد له ^(١) .

أغراضه شعره

في كتاب التعريف إحدى عشرة قصيدة ، في الاستعطاف والتهنئة
وال مدح والاعتذار وفي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن ابن خلدون
يذكر أنه أنشد السلطان أبا سالم المريني قصائد أخرى غير القصدين اللذين
أثبتما في التعريف ، ولم تحضره ليثبتها ^(٢) . وفي نفح الطيب قصيدة
لابن خلدون في مدح عمر بن عبد الله ملك المغرب ليست في كتاب
التعريف ^(٣) .

مصادص

١ - يُسم شعره بالجزالة والقوية أحياناً ، وبالرقابة والعدوبية أحياناً ،
في عصر موسوم بالضعف ، ولا شك أن هذا أثر لقراءته وحفظه رائع
الشعر وجشه . فمن شعره الجزل قوله في قصيده التي استعطاف بها السلطان
ليطلقه من حبسه :

على أى حال للبيالى أتعاب	وأى صروف للزمان أغائب ؟
كفى حزناً أنى على القرب نازح	وأنى على دعوى شهودي غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل	تسالنى طوراً وطوراً تحارب
وهي كما يقول طولية تناهز ماتى بيت ، لكنه لم يذكر منها غير	
خمسة ^(٤) .	

(١) نفح الطيب ٤ / ١١ - ١٧

(٢) التعريف ٧٦

(٣) نفح الطيب ٤ / ١٤

(٤) التعريف ٦٧

وقوله في مدح السلطان أبي العباس بتونس :

هل غير بابك للغريب مؤمل
هي همة بعشت إليك على التوى
متبوأ الديار، ومنتبع المفدى
حيث الملوك الصيد والنفر الأولى
شادوا على التقوى مبانى عزهم
قوم أبو حفص أب لهم وما
فضل الأنام حديثهم وقد يهم
وبنوا على قلـل التنجوم ووطدوا
ومن شعره الرقيق العذب تغزله في قصيدة التي ألقاها في احتفال
السلطان أبي سالم بولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٧٦٢ هـ

أسرفـنـ في هجرـيـ وفي تعذـبـيـ
وأطلـنـ موقف عـرـقـ ونـجـبـيـ
لو داعـ مشـغـوفـ الفـؤـادـ كـتـيـبـ
للـهـ عـمـدـ الـظـاعـنـينـ وـغـادـرـواـ
غـربـتـ رـكـابـهـ وـدـمـعـيـ سـافـحـ
يا نـاقـعاـ بـالـعـتـبـ غـلـةـ شـوـقـهـ

(١) أبو حفص عمر بن الله الصنهاجي ، ويعرف بأزناج ، وعمر ، سماه ابن تومرت عمر ، كان من أوائل أصحاب ابن تومرت ملشىء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن علي ، وإليه تنسب الدولة الحفصية (العبر ٦ / ٢٧٥ والمعجب ١٢٥) .

الفاروق : ذكر ابن خلدون في العبر (٦ / ٢٧٥) أن نسب الحفصيين ينتهي

(٢) التعريف ٢٢٣

إلى عمر بن الخطاب

يُستَعْذِبُ الصَّبُورُ مَمَّا يَلِمُهُ وَإِنِّي مَمَّا يَلِمُهُ لَدِيْ غَيْرُ شَرُوبٍ

* * *

ثُمَّ عَدْدُ مَعْجَزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَدْحُهُ، ثُمَّ

اسْتَغْاثَةُ بِهِ :

يَا خَيْرَ مَدْعُوْ وَخَيْرَ بَحِيبٍ

إِنِّي دُعَوْتُكَ وَأَنْتَ يَا جَابِتَى

فِيمَا لَذَكْرُكَ مِنْ أَرْيَجِ الْطَّيْبِ

قَصَرْتُ فِي مَدْحِىٍّ إِنِّي يَا طَيِّبًا

فِي مَدْحُوكِ الْقُرْآنِ كُلُّ مَطِيبٍ؟

مَاذَا عَسَى يَبْغِي الْمَطْيَلُ وَقَدْ حَوَى

تَدْنِي إِلَى الْفَوْزِ بِالْمَرْغُوبِ

يَا هَلْ تَبْلُغُنِي الْلِّيَالِي زَوْرَةً

وَأَحْطَ أَوزَارِي وَإِنْظِرْ ذَنْبِي

أَمْحُو خَطَبَتِي يَا خَلَاصِي بِهَا

إِنْضَاءُ كُلِّ نَجِيَّةٍ وَنَجِيبٍ

فِي فَتِيَّةٍ هَجَرُوا الْمُنْفِي وَتَعَوَّدُوا

مَاشِئَتَ مِنْ خَبَبٍ وَمِنْ تَقْرِيبٍ

يَطُوِي صَاحَافَ لِيَهُمْ فَوقَ الْفَلَانِ

أَنْفَاسُ مُشَتَّاقٍ إِلَيْكَ طَرُوبٍ

إِنْ رَأَمْ الْحَادِي بِذِكْرِكَ رَدَدُوا

حَنْوَا لِمَغَانِها حَنِينَ النَّيْبِ

أَوْ غَرَدَ الرَّكَبُ الْخَلْيُّ بَطَيَّةً

ثُمَّ اتَّقْلَى إِلَى عَبْرِ السَّلَطَانِ أَبِي سَالِمِ الْبَحْرِ، وَاسْتَيْلَانَهُ عَلَى مَلْكِهِ :

سَائِلُكَ بِهِ طَامِي الْعُبَابِ وَقَدْ سَرَى

تُزْجِيهِ رَيْحُ الْعَزْمِ ذَاتُ هُبُوبٍ

تَهْدِيهِ شَهْبُ أَسْنَةٍ وَعَزَائِمٍ

يَصْدُعُنِ لِيلَ الْحَادِثِ الْمَرْهُوبِ

حَتَّى انْجَلَتْ ظَلْمُ الضَّالِّ بِسَعِيَّهِ

وَسَطَا الْمَهْدِي بِفَرِيقِهِ الْمَغْلُوبِ

يَابِنُ الْأَلْى شَادُوا الْخَلَافَةَ بِالْتَّقْيَى

وَاسْتَأْثَرُوكَ بِتَاجِهَا الْمَعْصُوبِ

جَعُوا الْحَفْظَ الدِّينِ أَىْ مَنَاقِبٍ

كَرُمُوا بِهَا فِي مَشْهِدِ وَمَغْبِبِ

لَهُ مَجْدُكَ طَارِفَا أَوْ نَالِدَآ

فَلَقَدْ شَهَدْنَا مِنْهُ كُلُّ عَجِيبٍ

كَمْ رَهْبَةً أَوْ رَغْبَةً بِكَ، وَالْعَلَا

تُقْتَادُ بِالْتَّرْغِيبِ وَالْتَّرْهِيبِ

لazلت مسروراً بأشرف دولة يدو الهدى من أفقها المرقوب
 تحى المعال غادياً أو رائحاً وحيداً سعدك ضامن المطلوب
 ٢ - وهو بارع الوصف ، رائع التصوير ، فقد أرسل ملك السودان
 هدية إلى السلطان أبي سالم ، فيها زرافة ، فدحه ابن خلدون وهناء ، وبدأ
 قصيدته بغزل رقيق ثم ذكر اتصاله به ، وغضطته بالخطوة عنده ، ثم وصف
 الزرافة ، فذكر لونها ، وحبها لحياة الغابة ، وطول جيدها ، وقدرتها على أن
 تطول به ما علا ، وعجزها عن أن تناول به ما سفل ، والمشقات التي احتملتها
 حتى وصلت :

ورقمة الأعطاف حالية موشية بوشائع البرد
 وحشية الأنساب ما أنسنت في موحش البيداء بالقود
 تسمو بجيد بالغ صعداً شرف الصروح بغیر ما جهد
 طالت رموس الشامخات به ولربما قصرت عن الوهد
 قطعت إليك تنافقاً وصلت إسادها بالنص والوحد^(١)
 تخدى على استصعبها ذللاً وتبينت طوع الفتن والقد^(٢)
 ثم أعقب ذلك بمدح السلطان^(٣) :

ويقول في وصف كتابه العبر ، وقد أهداه إلى السلطان أبي العباس :
 وإليك من سير الزمان وأهله عبراً يدين بفضلها من يعدل
 صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى غروا فتجمل عنهم وتفصل

(١) تنافف : صحاري . الإآد : الإغذاذ في السير أو سير الليل كاه أو سير الليل والنهار مع النص : حد النافقة مثلاً على أن تجود بأقصى مراعتها . الوحد : سعة الخطو في المشي . (٢) القن : العبد . القد : سير تربط به الدابة

١- تبدي التباعُ والعالق سرها
 وثُمودُ قبلهمْ عادُ الأول
 والقائمون بصلة الإسلام من
 مضرِّ وبربرهم إذا ما حصلوا
 لخستُ كتبَ الأوائل جمعها
 وألنتُ حوشَ الكلام كأنما
 شردُ اللغاتِ بها لنطقِ ذلل
 أهديت منه إلى علاك جواهرًا
 مكنونة وكواكبًا لا تألفُ
 ييأى الندى به ويز هو المحفيل^(١)

٢- وإذا ما استعطف واعتذر تسلل إلى القلوب بالاستهالة ، وحسن
 الدفاغ عن نفسه ، وترمة ساحتة ، والتوصل بضعفه ، وذكر نعم الذي
 يعتذر إليه .

فقد وشى سودون نائب السلطان برقوق بين السلطان وابن خلدون ،
 وكان ينقم عليه عصيانه في أحکامه القضائية ، وكان الظاهر برقوق نفسه
 ينقم على الفقهاء بعض فتاواهم التي أجبرهم عليها منطاش أيام الفتنة ، فتوسل
 إليه ابن خلدون بقصيدة ، فتغافل السلطان عنه مدة ، ثم عاد إلى رضاه
 وإحسانه .

وفي قصيدة الاعتذار الطويلة ، غاية ما يقال في استجلاب الرضا ،
 واستدرار العطف والصفح ، مثل قوله في خطاب (الجوابي) الذي سيطالع
 السلطان بالقصيدة .

سيدى والظنون فيك حيله
 وأياديك بالأمانى كفيلة
 لا تحُل عن جيبل رأيك إنى
 مالى اليوم غير رأيك حيلة

واصطنعنى كا اصطنعت ياسدا
لا تضعنى فلست منك مضينا
ذمة الحب والأيادى الجميلة
وأجرنى فالخطب عض بنائي
أجرى إلى حمای خيوله
ولو أني دعا بنصرى داع
كنت لي خير عشر وفصيلة
ثم قوله في مدح السلطان والإشادة بنعمائه :

العزُّ السُّلطانِ والملكُ الظَا هُنْخَرُ الدُّنْبَا وعزُّ القبيلة
ومجبرُ الإسلام من كل خطبٍ كاد زلزالُ بأسمه أن يزيله
لا تقصّر في جبرٍ كسرى فازلت أرجيك للأيادى الطويلة
أنا جار لكم منعم حماه وبهمت إلى المعالى سبله
وغربي أنستموه على الوحشة والحزن بالرضا والسهولة
غاله الدهر في البنين وفي الأهل وما كان ظنه أن يغدو له
ورمته الموى فقيدا قد اجتا حت عليه فروعه وأصوله
بحذبتم بضبعه وأنتم كل ما شامت العلا أن تدليه
ورفعتم من قدره قبل أن يشدكم عياده وحموله
ثم يقول في الوشایة :

والعدا نَقَوا أحاديث إفك كلها في طرائق معلولة
روجوا في شأنى غرائب زور نصبوها لأمرهم أحبوه
ورموا بالذى أرادوا من البهتان ظنا بأنها مقبولة
زعموا أننى أتيت من الآلة والمال يظننى أن أقوله

كيف لـ أغمط الحقوق وأنـ شـ كـ رـ نـ هـ اـ مـ عـ لـ الـ جـ زـ يـ لـ ؟
 إنـ يـ كـ نـ ذـ اـ فـ قـ دـ بـ رـ ئـ ئـ منـ اللـ اـ لـ تـ عـ الـ وـ خـ نـ تـ جـ هـ رـ آـ رـ سـ وـ لـهـ
 طـ وـ قـ وـ نـ اـ مـ رـ الـ كـ تـ بـ فـ كـ اـ نـ لـ قـ دـ اـ حـ الـ ظـ نـ وـ فـ نـ اـ مـ جـ يـ لـ ؟^(١)
 لاـ ، وـ رـ بـ الـ كـ تـ بـ أـ نـ زـ لـهـ اللـ اـ لـ عـلـىـ قـ لـ بـ مـ نـ وـ عـيـ تـ زـ يـ لـهـ
 ماـ رـ ضـ يـ نـ بـ ذـ اـ كـ فـ عـ لـاـ وـ لـاـ جـ هـ نـاهـ طـ وـ عـاـ وـ لـاـ اـ قـ فـ يـ نـاـ دـ لـ يـ لـهـ
 إـنـماـ سـ اـ مـ اـ مـ اـ الـ كـ تـ بـ ظـ لـوـمـ لـاـ يـ رـ جـ يـ دـ فـ اـعـهـ بـ الـ حـ يـ لـهـ

.....

غـ يـرـ آـنـ وـ شـ يـ بـ ذـ كـ رـ وـ اـشـ يـ تـ قـصـيـ أـوـ تـارـهـ وـ ذـ حـوـلـهـ

.....

وـ أـ جـ الـ مـلـوـكـ قـ دـ رـأـ صـفـوحـ يـ رـ تـجـيـ ذـنـبـ دـهـرـهـ لـيـقـيلـهـ
 فـاقـبـلـواـ العـذـرـ إـنـاـ الـيـوـمـ نـرـجـوـ بـحـيـاـ الـسـلـطـانـ مـنـكـ قـبـولـهـ
 وـأـعـيـنـواـ عـلـىـ الزـمـانـ غـرـيـاـ يـشـتـكـيـ جـدـبـ عـيـشـهـ وـمـحـولـهـ
 جـارـكـ ، وـضـيـفـكـ ، نـزـيلـ حـامـكـ لـاـ يـضـيـعـ الـكـرـيمـ يـوـمـاـ نـزـيلـهـ^(٢)

٤ - وـ قـصـائـدـهـ عـلـىـ قـلـتـهاـ تـمـتـازـ بـالـطـوـلـ . فـقـصـيـدـتـهـ الـتـىـ يـعـتـذـرـ فـيـهاـ لـلـظـاـهـرـ
 بـرـقـوقـ فـيـ سـبـعـةـ وـسـتـيـنـ بـيـتاـ ، وـذـكـرـ مـنـ قـصـيـدـتـهـ الـتـىـ قـالـهـاـ فـيـ حـفـلـ الـسـلـطـانـ
 أـبـيـ سـالـمـ بـمـوـلـدـ النـبـيـ سـبـعـةـ وـأـرـبـعـينـ بـيـتاـ ، وـذـكـرـ مـنـ قـصـيـدـتـهـ فـيـ تـهـنـئـتـهـ بـهـدـيـةـ
 مـلـكـ السـوـدـانـ سـبـعـةـ وـثـلـاثـيـنـ بـيـتاـ ، وـاستـعـطـفـ الـسـلـطـانـ أـبـاـعـنـانـ بـقـصـيـدـةـ قـالـ

(١) يـشـرـ إـلـىـ فـتـوـيـ المـقـرـيـزـيـ وـابـنـ الـفـرـاتـ وـغـيرـهـماـ بـأـنـ الـمـلـكـ الـظـاـهـرـ بـرـقـوقـ
 يـجـوـزـ فـتـالـهـ لـأـنـهـ بـسـتـعـيـنـ عـلـىـ قـتـالـ الـمـسـلـمـيـنـ بـالـنـصـارـىـ . وـكـانـتـ مـؤـاـمـرـةـ مـنـ الـخـارـجـيـنـ
 عـلـيـهـ ، فـهـوـهـوـاـ عـلـىـ رـجـالـ الدـيـنـ وـادـعـواـ أـنـ فـجـيـشـهـ ٦٠٠ـ نـصـرـانـ .

(٢) التـعـرـيفـ ٣٣١ـ ـ ٣٣٥ـ

إنها ناهزت مائة بيت ، لكنه لم يذكر منها غير خمسة أبيات^(١) ، وله مدحه للسلطان أبي العباس سلطان تونس في مائة بيت واثنين^(٢)

٥ - وبعد فإنه في شعره كما كان في ثراه يجري مع الفطرة ، لا يتوقف ليقتضي لوناً من البديع ، ولا يتحبس^٣ ليعبر بنوع من أنواع الألایعيب اللفظية ، وإنما يتوجه المعنى ويحرص عليه ، ويتوخى التعبير الدقيق للمعنى الذي يريد ، ثم تعدد في القصيدة الواحدة موضوعاتها ، وتعدد في كل موضوع معانيه ، ولكنها يسلسلها ويرتبها .

على أنه لا يعتمد الربط بين موضوع وموضوع ، ولا يتحايل في الانتقال من غرض إلى غرض .

ولاشك أن هذا أثر من دراسة المنطق ، وقد أسلفت أنه نبغ فيه ، ونال جواز الأستاذة ، وقال ابن الخطيب إنه ألف فيه كتابا . ثم إنه درس العلوم العقلية الأخرى ، فتعاونت مع المنطق على دقة تعبيره ، وانضباط تصويره ، وترتيب تفكيره .

٦ - ولكن شعره مع هذا موسوم بقلة الخيال وض Howellته ، ويظهر أن العلوم العقلية قد عدت على خياله الأدبي كما سبق في شكوكه من ذلك إلى صديقه ابن الخطيب .

وفي بعض الأبيات تضعف عبارة بين عبارات قوية ، مثل قوله في مدح السلطان أبي العباس بتونس :

هذا أمير المؤمنين إمامنا في الدين والدنيا إليه المولى

هذا أبو العباس خــير خــلــيفة
شهدــت له الشــيم الــى لا يــحمل
مستــنصر بالــله فــي قــهر العــدا
وعلــى إــعــانــة رــبــه متــوكــل
فــلــانت أــعــلــى المــالــكــين وــإــن غــدوــا
يــتســابــقــون إــلــى العــلــام وــأــكــلــا
قــاـيــســ قــدــيــماــ منــكــمــ بــقــدــيــهــمــ فــالــأــمــرــ فــيــهــ وــاضــحــ لــاــيــحــمــلــ (١)
فــهــاتــانــ العــبــارــاتــانــ (ــوــعــلــىــ إــعــانــةــ رــبــهــ مــتــوكــلــ)ــ وــ(ــفــالــأــمــرــ فــيــهــ وــاضــحــ لــاــيــحــمــلــ)
ناــزــلــتــانــ عنــ جــوــ القــصــيــدــةــ العــامــ .

وــأــحــيــاــنــاــ يــجــرــىــ فــيــ مــضــمــارــ الــمــالــغــةــ ،ــ كــاــفــىــ الــأــيــاتــ الســابــقــةــ ،ــ وــلــقــدــ يــعــتــذــرــ لــهــ
بــأــنــ الســلــطــانــ أــبــاــ العــبــاســ كــاــنــ أــقــوىــ ســلاــطــينــ الــمــغــرــبــ ،ــ عــلــىــ أــنــ مــبــالــغــاتــهــ قــلــيــلــةــ
وــغــيــرــ مــغــرــقــةــ فــيــ الــغــلوــ .

وــمــنــ ذــلــكــ قــوــلــهــ فــيــ مــدــحــ الســلــطــانــ أــبــيــ العــبــاســ :

يــابــنــ الــخــلــافــ وــالــدــيــنــ بــنــورــهــمــ	نــهــجــتــ ســبــيلــ الــحــقــ بــعــدــ دــرــوــســ
حــاطــ الرــعــيــةــ بــالــســيــاســةــ فــاــنــضــوــتــ	مــنــهــ لــاــكــرــمــ مــالــكــ وــســؤــوســ
أــســدــ يــحــامــيــ عــنــ حــمــيــ أــشــبــالــهــ	حــتــىــ ضــوــواــ مــنــهــ لــأــمــنــعــ خــيــســ
قــســمــاــ بــمــوــشــيــ الــبــطــاحــ وــقــدــ غــدــتــ	تــخــتــالــ زــهــوــآــ فــيــ ثــيــابــ عــرــوــســ

* * *

لــبــقــاــكــ حــرــرــ لــلــأــنــامــ وــعــصــمــةــ وــحــيــاــةــ أــرــواــحــ لــنــاــ وــنــفــوــســ .
وــلــانــتــ كــافــلــ دــيــنــاــ بــحــمــاــيــةــ لــوــلــاــكــ ضــيــعــ عــهــدــهــاــ وــتــوــســىــ (٢)
وــفــيــ قــلــيــلــ جــدــآــ مــنــ عــبــارــاتــ ســمــاتــ المــصــطــلــحــاتــ الــعــلــمــيــةــ ،ــ مــثــلــ قــوــلــهــ فــيــ
الــقــصــيــدــةــ الســابــقــةــ :

(١) التــعــرــيفــ ٢٣٦ (٢) التــعــرــيفــ ٢٤٢ درــوــســ ذــهــابــ . خــيــســ: مــســكــنــ الــأــســدــ

والناصر الدين القويم بعزمـة طرد استقامتها بغـير عـكوس

والطرد والعـكس من اصطلاحـات المـنطق

وفي بعضـها أثـارة من تـعـابـير العـلـوم ، مـثـل قولهـ في مدـح الرـسـول :

قصـرـتـ في مدـحـي فـإـنـ يـكـ طـيـباـ فـبـاـ لـذـكـرـكـ مـنـ أـرـيـجـ الطـيـبـ (١)

ولـهـ قـالـبـ أـسـلـوبـ يـعـبـرـ بـهـ عـنـ إـعـجـابـهـ كـثـيرـآـ ، ذـلـكـ بـأـنـهـ يـكـرـرـ (لـهـ كـذاـ) فـثـلاـ يـقـولـ :

لـهـ مـاـ شـادـواـ هـنـاكـ وـأـثـلـواـ (٢)

لـهـ مـنـ خـلـقـ كـرـيمـ فـالـنـدـىـ (٣)

لـهـ مـنـكـ السـابـقـ الـمـتـهـلـ (٤)

لـهـ مـنـكـ مـؤـيدـ عـزـمـاتـهـ (٥)

لـهـ عـهـدـ الـظـاعـنـينـ وـغـادـرـواـ (٦)

لـهـ بـجـدـكـ طـارـفـاـ أوـ تـالـدـاـ (٧)

لـهـ مـنـيـ إـذـ تـأـوـيـ بـنـيـ (٨)

وـلـهـ مـنـيـ بـعـدـ حـادـثـةـ النـوـيـ (٩)

(٢) التعـريف ٢٣٥

(٢) التعـريف ٢٣٤

(١) التعـريف ٧٢

(٦) التعـريف ٧٠

(٥) التعـريف ٢٣٦

(٤) التعـريف ٢٣٦

(٩) التعـريف ٨٨

(٨) التعـريف ٧٥

(٧) التعـريف ٧٣

انحصار مorte

وبعد : فهذه صفحات من ابن خلدون العالم ، المؤرخ ، الاجتماعي ،
الكاتب ، الشاعر ، المبتدع في عصر الجمود والتقليد ، المترسل في عصر الزينة
والزخرف وتسكيل المعانى بالقيود .

هذه صفحات من عالم عبقرى ، ومفكر فذ ، وأديب مجيد ، قصدت[ُ]
بجلامها أن أضع حجرآ فى تمثاله ، وأن يكون لى نصيب فى التنويم بحاله ،
وأن توحى إلينا عبقريته بأن النبوغ لا وطن له ولا إقليم .

فليشق علينا ، وأدباؤنا بأنفسهم ، وليرؤم العاملون منهم فى أن يسودوا كما
ساد ، وأن يشيدوا كاشاد ، ولينظروا إلى سبق الغرب للشرق الآن على أنه دوره
من دورات الفلك ، لاعلى أنه تفوق فى الاستعداد ، أو تميز فى العقل ، أو تفرد
في النبوغ ، فقد يعا نقل الغرب عن الشرق ، وفي العصور الوسطى تلمذت
أوروبا على العرب ، فهل زرجى في القريب أن نستعيد ما مضى ؟ هل نؤمل
أن يتقدم المسلمون العالم ويتباهوا منه موضع الإمارة والصدارة ؟ أليس
من المستطاع أن ينبع في العالم الإسلامي أو العربي من يفرع في تفكيره ،
ويبرع في تعبيره ، ويبتكر من الأفكار ما يهر العالم ، ويشغل الدارسين ؟
اللهم إن هذه الآمال ميسورة التحقيق ، إذا خلصت النبات ، وصحت العزمات ،
وصاحبها التوفيق .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

- ١ - آراء أهل المدينة الفاضلة . الفارابي . نشره الدكتور فردريلك ديتريسي Dr. Friedrich Dieterici.
- ٢ - أبجد العلوم . أبو الطيب صديق بن حسن الهندي . المطبعة الصديقية بالهند ١٢٩٥ م.
- ٣ - ابن خلدون . حياته وتراثه الفكري . الأستاذ محمد عبدالله عنان . مطبعة دار الكتب ١٩٣٣ م
- ٤ - الإحاطة في أخبار غرناطة . لسان الدين بن الخطيب . مطبعة الموسوعات ١٣١٩ م.
- ٥ - إحصاء العلوم . الفارابي . نشره الدكتور عثمان أمين . مطبعة دار الفكر العربي بمصر ١٩٤٩ م.
- ٦ - إخوان الصفا . الأستاذ عمر الدسوقي . مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٦٦ م - ١٩٤٧ م.
- ٧ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض . المقرى . طبعة تونس ١٣٣٢ م - ١٩٤٠ م.
- ٨ - إغاثة الأمة بكشف الغمة . المقرizi . نشره الدكتور مصطفى زيادة والدكتور جمال الشيال . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ م - ١٩٤٠ م.

- ٩ - البيان والتبيين . الماحظ . نشره الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- ١٠ - تاريخ آداب اللغة العربية في الأندلس والدول المتابعة . الأستاذ أحمد السكندرى بك ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م .
- ١١ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك . مطبعة المعارف ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ١٢ - تاريخ الفلسفة اليونانية . الأستاذ يوسف كرم . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- ١٢ - التربية في العصور الوسطى . الأستاذ شرف الدين خطاب . مطبعة الاستقامة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .
- ١٤ - التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . مخطوط بدار الكتب ١٠٩ تاريخ . ثم رجعت إلى الكتاب المطبوع ، نشره الأستاذ محمد ابن تاویت . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ١٥ - التهديد في الرد على الملحدة المعطلة . . . الباقلاني . نشره الأستاذان محمد الخضيري ومحمد عبد الهادى أبو ريدہ . مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .
- ١٦ - الجغرافيا التجارية والاقتصادية والجغرافيا البشرية . الأستاذ محمد حدى يك .
- ١٧ - رسائل إخوان الصفا . طبعة بو مبي .
- ١٨ - رسائل السكندي الفلسفية . نشرها الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدہ مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

- ١٩ - رسالة السياسة . ابن سينا . من مجموع مقالات فلسفية قديمة . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١١ م .
- ٢٠ - رسالة السياسة . الفارابي . من المجموع السابق .
- ٢١ - رسالة مدح التجار . الجاحظ . من مجموعة رسائل للجاحظ . نشرها ساسي . مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٤ هـ .
- ٢٢ - سيرة ابن هشام . نشرها الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .
- ٢٣ - ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين بك . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٥١ - ١٩٣٢ م .
- ٢٤ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . السخاوي . مكتبة القديسى .
- ٢٥ - العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان .
- ٢٦ - العقل الباطن . سادر . ترجمة الأستاذ عباس حافظ ١٩٤٦ م .
- ٢٧ - فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . الدكتور طه حسين . مطبعة الاعتماد ١٣٤٣ - ١٩٢٥ م .
- ٢٨ - فوات الوفيات . ابن شاكر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .
- ٢٩ - في التربية . الدكتور على عبد الواحد وافي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٣ - ١٩٣٤ م .
- ٣٠ - في علم النفس . الأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ محمد عطية الإبراشى . المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م .
- ٣١ - قواعد المنهج في علم الاجتماع . إميل دور كهaim . ترجمة الدكتور محمود قاسم .
- ٣٢ - الكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٣٣ - اللوأ النظم في روم التعلم والتعليم . زكريا الانصارى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ

٣٤ - محاضرات في تاريخ الأدب العربي . الدكتور أحمد ضيف . مطبعة العلوم بمصر ١٣٥٤ هـ - ١٩٢٥ م

٣٥ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب . محيي الدين بن عبد الواحد . المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣ هـ - ١٩١٤ م

٣٦ - مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

٣٧ - مقدمة في علم النفس الاجتماعي . دكتور شارل بوندل . ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامة . مطبعة الفكرة بمصر

٣٨ - الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقرizi . المطبعة الأميرية ١٢٠٧ هـ

٣٩ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . المقرى . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ

٤٠ - وفيات الأعيان . ابن خلكان . المطبعة اليمنية بمصر ١٣١٠ هـ

De l' esprit Des lois. Montesquieu - ٤١

The Back ground of Islam by Philby. - ٤٢

فهرس لكتاب

المقدمة

٨ - ٥

عَصْرُهُ الْعِلْمِي جَبَانَةٌ

أسرته (٩) سيرته (١٠)

١٦ - ١٣

شَفَافَتَهُ

العلوم التي درسها (١٢) أستاذته (١٣) مؤلفاته (١٥)
مصادره (١٥) شخصيته (١٧)

٢٣ - ٢٠

مَكَانِتُهُ وَأَثْرُهُ

تلמידيه بمصر (٢٠) أثر المقدمة في العصور التي بعده (٢٠)
عنابة الغربيين بها (٢١) التشابه بين آرائه وآراء مونتسكيو
وجوستاف لو بون (٢١) إشادة الغربيين بذلك (٢٢) إغفال
الدارسين بعض آرائه (٢٣)

التربية الإسلامية قبله

٢٥ - ٢٤

- أساس الحضارة الإسلامية (٢٤) العلوم الإسلامية (٢٤)
كثرة علماء التربية (٢٤) أخذها عنهم (٢٥)

البيئة الطبيعية وآثارها

٥٢ - ٢٦

- تأثيره بالإدريسي في تقسيم الأقاليم (٢٦) تحديد الأقاليم في
رأي الإدريسي (٢٧) أثر البيئة الطبيعية في الأجسام (٢٧) تعليق
على رأيه (٢٩) أثر البيئة الطبيعية في العقول والحضارة (٣٢)
تعليق (٣٢) أثرها في الأخلاق (٣٥) تعليق (٣٨) تعليق عام
على آرائه في البيئة الطبيعية (٤٣)

البيئة الاجتماعية وآثارها

٦٧ - ٥٣

- ما البيئة الاجتماعية ؟ (٥٣) أثر الدين في الأخلاق (٥٣)
تعليق (٥٤) أثر نظام الحكم (٥٦) تعليق (٥٦) أثر كثرة
السكان (٥٧) تعليق (٥٨) . أثر الغالب في المغلوب (٥٩)
تعليق (٦٠) أثر الحضارة في الأخلاق والعقول (٦١) تعليق (٦٢)
أثر الفلاحة في الأخلاق (٦٣) تعليق (٦٤) أثر التجارة في
العقول والأخلاق (٦٤) تعليق (٦٥) تعليق عام على آرائه
في البيئة الاجتماعية (٦٦)

طريقة التعليم

٩٤ - ٦٧

- تقسيم العلوم (٦٧) الطريقة المثلث في التعليم (٧٠) تعليق (٧١)
- تعليم اللغة (٧٤) تعليق (٧٧) تعليم الصناعة (٧٧) تعليق (٧٨)
- كتاب واحد (٧٩) تعليق (٧٩) علم واحد (٨٠) تعليق (٨٠)
- التوسيع والإجمال (٨١) تعليق (٨٢) التعليم في العالم الإسلامي
- (٩٠) تعليق (٩٢) القرآن الكريم (٩٣) تعليق (٩٤)

نظم التعليم

٩٧ - ٨٥

- (٨٤) إتصال مجالس التعليم (٨٥) تعليق (٨٥) الشدة والعقوبة
- (٨٦) تعليق (٨٧) التعليم صناعة (٨٩) تعليق (٩٠) الرحلة
- في طلب العلم (٩٤) تعليق (٩٥) المدرسون (٩٦) تعليق (٩٧)

آثار العلوم وغاياتها

١٠٤ - ١٠٠

- الغاية من العلوم اللسانية . أثر علم البيان في فهم الإعجاز ، أثر القرآن الكريم في الإنتاج الأدبي (١٠٠) الغاية من علم الأدب (١٠١) الغاية من العلوم الأخرى (١٠١) تعليق (١٠١)
- إغفاله تعليم البنت (١٠٢)

آراؤه في علم النفس

١٢٢ - ١٠٥

- دراسة النفس ضرورية للمربيين (١٠٥) تعليق (١٠٥)
الملكات (١٠٦) تعليق (١٠٧) العقل الجمعي (١٠٩) تعليق (١١١)
آراؤه في الفطرة (١١٢) تعليق (١١٣) الذوق اللغوي (١١٤)
 تعليق (١١٥) الإيحاء (١١٦) تعليق (١١٦) التعلم طبيعة (١١٨)
 تعليق (١١٨) الأحلام (١١٩) تعليق (١٢٠)

مكانته الأدبية

١٦١ - ١٢٣

- الحالة السياسية في المغرب ، النزاع والثورات والانقسام
 (١٢٣ - ١٢٥) الحالة الأدبية ، القلق والاضطراب ، تشجيع
 بعض الأمراء للعلماء والأدباء ، هجرة بعض الأندلسيين إلى
 إفريقيا ، ضعف الأدب في إفريقيا والمغرب ، أسباب هذا
 الضعف (١٢٥ - ١٢٧) النثر في عصر ابن خلدون ، محاكاة
 الأندلسيين والمغاربة للمغاربة ، بواعث هذه المحاكاة
 ومظاهرها (١٢٧ - ١٢٩) الطريقة الشائعة في عصره (١٢٩)
 خصائص طريقة القاضي الفاضل ولسان الدين بن الخطيب
 (١٢٩ - ١٣٥) صلة ابن خلدون بولسان الدين (١٣٦) دراسته
 الأدبية (١٣٧) رأيه في طريقة إجادة اللغة والأدب (١٣٩)

ذر ابن خلدون

١٤٩ - ١٤١

موضوعاته (١٤١) خصائصه (١٤٢) الترسل (١٤٢) قلة السجع
 والحسنات (١٤٤) الجزالة والقوة في تعبيره عن عاطفة أو
 دفاعه عن فكرة (١٤٦) الترسل الحالى من القوة في شرح
 القضايا العلمية (١٤٧) وضع كثير من المصطلحات (١٤٧)
 تطوير اللغة للتعبير عن المعانى الدقيقة (١٤٨) مخالفة القواعد
 الصرفية واللغوية أحياناً (١٤٨) إطالة الجمل وتدخلها (١٤٨)
 أثره فيمن بعده (١٤٩)

شعر ابن خلدون

١٦١ - ١٥٠

اعترافه بأنه لم يبلغ حد الجودة (١٥٠) أغراض شعره (١٥١)
 خصائصه (١٥٢) الجزالة والقوة والرقابة والغدوة (١٥٢) براعة
 الوصف (١٥٥) المهارة في الاستعطاف والاعتذار (١٥٦)
 الطول (١٥٨) ترتيب الأفكار والبعد عن الحسنات (١٥٩)
 ضحولة الخيال (١٥٩) ضعف التعبير أحياناً (١٥٩) المبالغة
 أحياناً (١٦٠) بعض التأثر بالمصطلحات العلمية (١٦٠) الإكثار
 من الإعجاب بقوله الله كذا (١٦١)

١٦٢ كلمة ختامية

١٦٣ المراجع

تصويب

الصواب	سطر	صفحة
أبي إسحق الحفصى	١٨	١٠
الإدريسي	١٢	١٣
ابن خلدون	١٠	١٥
(... سرى به النسم) والمرجع الضوء اللامع ٤٤٥ / ٤ وفي السطر التالى (كما سيجيء) والمراجع الموعظ والاعتبار ٤٢ - ٤٥ / ١	١٠	٢٠
وأدى في هذا الموضوع	٨	٢٢
الجواء	٢	٥٢
ويقرب	١٦	٥٥
الفاران	١١	٥٧
اتجهوا	١٠	٦١
بذلك	١٦	٦٣
فوق (تقسيم العلوم) عنوان (منهج التعليم وطريقته)	-	٦٧
بجمع عليه	١١	١٠٥

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - وحي النسيب في شعر شوقي

٢ - فن الخطابة

٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

٤ - الغزل في العصر الجاهلي

٥ - مع ابن خلدون



www.lisanarab.com

- MAR 1000

